أشهر نساء العرب

صفحات مشوقة من تاريخ المرأة العربية مفعمة بالإثارة والدهشة

منال العماوي

الفهرس

إهداء

إلى السيدة الفاضلة/ سوزان مبارك

التي تدين لها المرأة المصرية والعربية بالكثير في نهضتها الجديدة، تلك النهضة التي تحولت فيها الشعارات إلى حقائق، بحيث صارت المرأة مشاركا إبداعيا في صنع الواقع الجديد، وهذا الكتاب في حقيقته استلهام لتلك الروح الخلاقة التي بعثتها السيدة سوزان مبارك في المرأة المصرية والعربية بروح المبادرة والفعل، والتي لها امتدادها عبر الحقب والعصور التاريخية، عندما تبوأت المرأة العربية مكانتها جنبا إلى جنب مع الرجل العربي، قائدة وشاعرة وفقيهة وعالمة ومبدعة؛ لذلك.. أهدي هذا الكتاب إلى صانعة النهضة النسائية المعاصرة **السيدة الجليلة/ سوزان مبارك**

منال العماوي

المقدمة

هناك نساء خلدهن التاريخ بين صفحات كتابه.

وضعن شموسا أضاءت الدنيا.

هؤلاء النساء قمن بأعمال جليلة من أجل الإنسانية، فصفق التاريخ لهن، وأحنى هامته احتراما.

وهناك نساء لعنهن التاريخ، لم يغفر لهن الإساءة، فثار سخطه من أجل كل الجرائم التي ارتكبنها، والأعمال الفظيعة التي قمن بها.

وبين هؤلاء وهؤلاء نوع من النساء فرض وجوده إجباريا، نوع لا يستطيع التاريخ إغفال ذكره، بسبب عبقريته ونبوغه، أو بسبب تفرده أو جموحه.

وهذا الكتاب يضم بين طياته حكايات أخاذة، هي ـ في حقيقتها ـ قصص واقعية: لنساء حفرن في التاريخ مكانهن، فخلد ذكراهن.

قصص واقعية، لكنها أغرب من الخيال.

الكاتبة

بلقيس

* ملكة سبأ

لم تحظ ملكة على مر التاريخ بمثل ما حظيت به الملكة بلقيس من مكانة عالية، وترف أسطوري، وكنوز تفوق التصور.

ولقد نالت هذه الملكة درجة عالية من المجد، ليس بسبب ذكائها ودهائها فحسب، ولا بسبب علمها وثقافتها الرفيعة وسعة اطلاعها فقط ـ ولكن بسبب ما وطنت عليه نفسها من نبذ أي ضعف أنثوي!!

لم يكن طريقها للعرش مفروشا بالورود، فبعد وفاة الملك الأب، وتولية بلقيس باعتبارها الوريثة الشرعية، واجهتها المحنة الفاصلة ـ فلقد رفض الرعية أن تحكمهم امرأة!!

وكيف يعترفون بها ملكة عليهم، وهى محض أنثى ليس لها براعة الرجال في الشدائد ولا قوة عزيمتهم

وسواعدهم، ولا بأسهم في المعارك؟ وهكذا استنكروا من البداية الاعتراف بها والولاء لسلطتها.

كانت مملكة سبأ عدة دويلات أو مقاطعات، لكل مقاطعة أمير يحكمها، ويؤمن أملاكه جيش قوي يتصدى للدفاع عن حقوق الأمير والرعية، لكن أحد هؤلاء الأمراء ـ وهو الأمير عمر ذا الأعذار ـ المعروف بقوته وشدة بطشه وبأسه: أعلن عن رفضه أن يدخل تحت حكم امرأة بشكل عملي سريع، حيث رأى أنه أحق بالملك والعرش من هذه الأنثى، التي بدت له سهلة المنال، قابلة للاستحواذ، فلم يتوان عن تنفيذ رغبته وتحقيق مطمعه، فجهز جيشه واجتمع بأمراء المقاطعات، وفيما بين الترهيب والترغيب: كان الجميع قد أقروا به ملكا عليهم، وكيف لا، وهو الأمير صاحب السجل الطويل في سفك الدماء، والذي لا يردعه وازع من ضمير أو شفقة، فلا يستطيع أحد أن يخالف له أمرا، وإلا سيكون ذلك وبالا عليه وأسرته، فإن خطط انتقامه من خصومه كانت جنونية تبعث الرعب في قلوب الصغار والكبار، لذلك لم يجد الأمير عمر من يقول له: لا.

وبعد أن استوثق الأمير لنفسه وأخذ عليهم العهود: جهز جيشه واتخذ طريقه إلى قصر الملكة، ليستولي على العرش هانئا مطمئنا إلى كونها معركة سهلة!

وهكذا بدت الصورة قاتمة، وليس هناك من مخرج للملكة الشابة، فإن كبراء البلاد انفضوا من حولها يؤازرون الملك المرتقب، وحتى هؤلاء الذين أقسموا لأبيها بالولاء لها: أصبح يملأهم الذعر من انتقام عمر، فينكثون عهودهم السابقة، ويسارعون لنيل رضا الأمير: بتخليهم عنها وإعلان طاعتهم له، وليس لها من جيش يتصدى لزحف جيش الأمير عمر، وقد انضمت إليه جميع جيوش الأمراء.

فماذا فعلت هذه الملكة؟!

كان لابد لها أن تنتصر.

إن فكرة التخلي عن العرش: فكرة مستحيلة، وفى نفس الوقت فإن جميع الظروف من حولها تدفعها للهزيمة.

والواقع أنها في هذه اللحظة: كانت مجرد امرأة وحيدة، لكن بلقيس لم تهزم تماما.

فقد وضعت خطة لاستعادة ملكها.

خطة تضمن بها النصر والعرش والمجد، خطة تعتمد أولا وأخيرا عليها وحدها: على مقدرتها، ودهائها، وقوتها، وشجاعتها.

فلقد رأت بلقيس أن تهدي لعدوها نصرا سهلا!

وهكذا: مهدت له الطريق إلى العرش، ووضعت تاج الملك في متناول يديه، بل لقد فرشت له الأرض، وزينتها بالأكاليل، وجهزت القصر الملكي لاستقباله بالزينات والعطور، وكأنها تقول له، رجاء، تفضل تاج الملك! أما هي فقد هربت من القصر قبل وصوله، واختفت عن الأنظار، وظل ذلك لغزا يستعصي على الفهم، ويشغل بال الجالس على العرش، إلى أن بعثت إليه توعز له برغبتها في المثول بين يديه كامرأة تطمع في عطفه وحمايته، وليس كملكة تبحث عن التاج.

وهكذا أثارت بلقيس غروره الذي أسكره النصر السهل والعرش المستسلم، وراقه أن سليلة الملوك تسعى لنيل رضاه، والتقرب منه كبطل حرب، فقبل ـ ملهوفا ـ لقاءها ووعد بالأمان، بل لقد رأى أنه من المتاح أن يتزوجها، فيضمن بذلك تثبيت دعائم ملكه.

وهكذا التقى الخصمان..

ذهبت" بلقيس" الملكة الهاربة إلى "عمر" الملك مغتصب التاج والعرش.

ذهبت إليه في كامل زينتها، كامرأة تتأهب للعرس، فبهرته.

وجد أمامه امرأة ليست كمثل النساء

ناعمة، رشيقة، حديثها أخاذ، ثقافتها واسعة، وعلمها غزير، تتكلم واثقة بصوتها الرخيم، فسلبت لبه واستولت على مشاعره.

وكيف لا، وهى التي اعتادت مجالسة الملوك؟

تسللت تغزو رجولته بهدوء وقوة ويقين، فما مضى إلا بعض الوقت، وكانت بلقيس قد استحوذت بالكامل على عدوها العنيد، وحين أراد عمر أن يستخلصها لنفسه: أمر حراسه بالانصراف، وأمر بالشراب أن يأتي في الحال، زاعما لها أنه يريد أن يخلو بها كي يتنادما دونما رقيب، ويصلا ما بينهما من حديث، دون أن يسمعهما غريب، وعلمت بلقيس أنه الآن في قبضتها تماما، وتستطيع أن تفعل به ما تريد وهو نشوان والخمر تلعب به، والهوى يميل به

إليها، وهى تبهره بسحرها وخضوعها، وكلما هم بها تستمهله برفق ولين.

وفجأة ـ قطعت بلقيس حديثها، وكسرت كأسها، ثم استلت سيفها وصارت امرأة أخرى!

اختفى الود والكلام المعسول والنظرة الهادئة، وحل برود قاتل، وفي حزم وقوة واجهته وقالت:

- أنت اغتصبت العرش مني وهو حقي وميراثي، والآن هذه معركتي لاسترداد ما هو لي.

ولم تمهله سوى لحظات، ثم انقضت عليه كوحش كاسر كشر عن أنيابه، فانتزعت منه حياته، وهكذا دفع حياته ثمنا لطمعه، واستهانته بقدرات الملكة.

لكنها أرادت أن تسدل الستار تماما في وجه من يحاول مرة أخرى اغتصاب العرش، لذا كان لابد لها من أخذ العهود على الأمراء وضمان طاعتهم.

كتمت بلقيس نبأ موت الملك المغتصب، وأخفت جثته في ركن الغرفة تحت بعض الأمتعة، ثم بعثت إلى حكام الأقاليم وأمراء البلاد وكبار الأعيان والوزراء وكل من له

نفوذ وقوة، وكانت الرسائل موقعة مختومة بخاتم الأمير عمر، فلم يتوان القوم وحضروا سريعا إلى قصر المملكة.

فلما اجتمعوا كلهم، خرجت عليهم بلقيس وقد تهيأت لهم، وبدت في أعظم حال وأبهى منظر، فأصابتهم الدهشة، وكانوا قد حسبوها قتلت أو سجنت، ولم تتركهم بلقيس لحيرتهم طويلا فخاطبتهم قائلة:

- لا تندهشوا فقد تم بيني وبين الملك صلح مشروط، وهو الذى أشار علي أن أخبركم ذلك بنفسي قبل أن يلقاكم. فهل تريدون أن تعرفوا التفاصيل؟

فردوا عليها جميعا وقد ملكهم الفضول:

- نعم.. نعم.. نريد أن نعرف كل شيء.

فأجابتهم بلقيس:

- تعرفون مثلي أن الملك عمر لم ينجب، ولن ينجب وليا للعرش، فقد حرمته الآلهة من نعمة الإنجاب، وهكذا فليس هناك من صلبه من يرث الملك، وعليه فقد اتفقنا أن يكون العرش خالصا طيلة حياته، على أن أملك عليكم بعد مماته، وبهذا نحقن بيننا دماءنا، ونحافظ على تماسك واستقرار المملكة، ولقد تعاهدنا على ذلك، فما رأيكم؟

أجابوا جميعا بحماس: ذلك نعم الرأي وليس لنا بعده.
سألتهم بلقيس:

- وهل تقرون بي ملكة بعد وفاة عمر وتقسمون على ذلك؟

فلما أقسموا، أخذت عليهم العهد والمواثيق، ثم قالت لهم:

- والآن تسمعون من الملك.

ثم قادتهم إلى الحجرة الملكية، وهناك رفعت من فوق الملك الميت الأمتعة، وقالت:

- هاكم الملك عمر.. لقد قتلته بيدي حيث اغتصب العرش مني، وإني لأقسم وحق الآلهة أن يكون هذا هو مصير كل من يطمع في عرشي، أن أقضى عليه بيدي.

ثم استأنفت: لقد أقسمتم بالولاء لي من بعده، فما قولكم؟

وهنا لم يجد القوم ما يقولونه، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، وهم يرون الملك الذي كان ينشر الرعب في البلاد مكوما متخنا بالطعان.

حط عليهم الصمت إلا واحدا صاح قائلا: نحمد الآلهة أن خلصتنا من هذا الزنديق، وكنا نحسب أن لن يقدر عليه بشر.

وبعده تعالت أصواتهم ينادون بها ملكة عليهم.

وهكذا أصبحت بلقيس ملكة.

كانت معركتها لاسترداد العرش هي الأولى، لكنها لم تكن الأخيرة.

فبعد توليها حكم البلاد، أخذت على عاتقها توسيع حدود مملكتها، فجمعت جيوش المملكة، وأعادت تنظيم صفوفها وتدريبها على أعلى مستوى، ثم تولت بنفسها قيادة الجيش، إلى أرض بابل ففتحتها، وانتصرت على ملوكها، ثم واصلت زحفها وانتصاراتها، حتى ضمت إليها أرض نهاوند وأذربيجان، وبعد أن أخضعت الممالك وضمنت استتباب ملكها في البقاع، عادت إلى اليمن مظفرة محملة بالغنائم، فاستقبلها شعبها بآيات الافتخار والتمجيد، بعد أن وسعت أرجاء المملكة وعادت بالكنوز والثروات.

لكن بلقيس لم تستسلم لزهوة النصر، ولم تدع هالة العظمة التي أحاطت بها تخدعها، فتهدئ من همتها وتلين

جموحها، فقد كان هدفها أن تجعل من سبأ قبلة العالم ومحط الأنظار، وأن تحوز ثروات وغنى ليس مثله بين الممالك، ولا في أنحاء الأرض، فأخذت تعمل بهمة ونشاط: لتحقيق هذا الهدف، فأنشأت الأعمال العظيمة للري والزراعة: مثل سد مأرب وغيره، بينما سيطرت على طريق التجارة بين الشرق والغرب، فأصبحت بلادها مركز تجاري مهم ووسيط لا غنى عنه، يربط تجارة مصر والهند، وكذلك الطرف الجنوبي من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس مارا بمكة والمدينة، ولقد سلكت هذه الملكة كل الطرق لزيادة موارد بلادها، والاستفادة من إمكانيات المملكة شعبا وأرضا، يعاونها في ذلك ثلاثمائة واثنا عشر رجلا من خلصاء القوم أصحاب الرأي، جعلتهم كمجلس شورى لها، وكان لديها بصيرة نافذة في معرفة معادن الرجال، وكيف تستفيد من كل منهم، فكانت تضع الرجل المناسب في المكان المناسب، كما أنها أحسنت اختيار من تثق في عدلهم ورأفتهم بالرعية، فولتهم المناصب المهمة في الدولة كي يكونوا عونا للرعية لا جلادين عليهم، وقد أدت هذه الحكمة البالغة والبصيرة

النافذة والسياسة الطموحة إلى زيادة كبيرة في موارد الدولة، فامتلأت خزائنها بالذهب.

وهكذا صارت بلقيس أسطورة في زمانها، حتى قدسها الشعب، وعدوها ابنة الآلهة، وكانوا يعبدون النار والشمس، فكانت تجلس على كرسي عرشها المصنوع من الذهب المرصع باللآلئ والأحجار الكريمة النادرة، وكان هذا الصرح يضم كما يؤكد علماء الآثار ثلاثمائة وستين طاقة من مشرقه وثلاثمائة وستين طاقة أخرى من مغربه، بحيث تدخل الشمس من طاقة وتغرب من الطاقة التي تقابلها، حتى يسجد لها قومها صباحا ومساء، وهذا الصرح: هو الذي جاء ذكره في القرآن الكريم.

ولعل مظاهر الترف الأسطوري والبهرجة الخيالية التي كانت تحيط هذه الملكة هي التي جعلت اسمها يقترن بالنبي سليمان الحكيم، فالقصة المعروفة جاء ذكرها في التوراة والإنجيل والقرآن، عندما أنبأ الهدهد سليمان عليه السلام بحال مملكة سبأ وعظمة الملكة التي يسجد لها شعبها ويعبدونها دون الإله الواحد الأحد، فبعث إليها سليمان حينئذ يدعوها للإيمان بالله والدخول في طاعته.

فلما جلست الملكة يوما على عرشها، فإذا بصحيفة تلقى عليها من المجهول، وكأن هناك قوة غير مرئية هي التي ألقت الرسالة، فتوجست خيفة وجمعت حولها مستشاريها من أصحاب الرأي وقصت عليهم الحدث الغريب، ثم فتحت الرسالة: فإذا هي موجهة إليها من نبي اسمه سليمان الحكيم، وأنها بسم الله الرحمن الرحيم يدعوها وشعبها للإيمان والدخول في التوحيد، وتنطوي كلماته على الترغيب والتهديد، وبعد أن تلت عليهم الصحيفة، قالت لهم: أرى أن نذهل صاحب الرسالة بكنوز وهدايا لم تقع عينه على مثلها من قبل، فنرى هل تلهيه هذه العطايا عن حربنا من أجل دعوتنا لدينه، أم لا؟!

فلو كان نبيا حقا فلن يطمع في النعيم الدنيوي وسيرفض الهدية، وعندئذ سأوقن أنه فعلا نبي.

وعندما أيدها القوم بعثت لسليمان عليه السلام بهدية خارقة للعادة، حيث انتقت له أربعين شابا من الوجهاء يتسمون بالوسامة والملاحة، ولا يوجد أجمل منهم حتى ولا في أبناء الملوك، كذلك لا يوجد من يضارعهم علما وثقافة وأدبا وشجاعة، أصحاب بسالة ومروءة ومواهب، فكل

منهم فيه من الصفات الآسرة ما يفتخر به لو كان بحوزة الملك ـ فما بالك بأربعين ـ اجتمعت فيهم كل فضائل البشر، فصاروا أعجوبة زمانهم، ولا يقدر على اقتنائهم أعظم ملك.

ثم بعثت معهم مائة وصيف ومائة وصيفة ولدوا في شهر واحد ممن ولدوا في ليلة واحدة، وألبستهم جميعا ثيابا موحدة فأصبحوا يأخذون العين من جمالهم، وأرسلت معهم كنزا من الأحجار الكريمة التي لا يوجد مثيل لها في البلاد، وكذلك أرسلت مجموعة من أجود الخيول الأصيلة.

وبدأت الملكة فور إرسالها هذه الهدية في تجهيز جيشها وإعادة تنظيم صفوفه والدخول في استعدادات الحرب، وهي تقول في نفسها "سيأتي الرد قريبا، وقتها سأعرف من هو هذا الملك"، فلو كان مجرد ملك من ملوك الدنيا مهما علا شأنه فأنا أعز منه بسلطاني وجنودي، حينئذ سنحاربه، فما لأحد مهما كان بنا طاقة.

فلما وصلت هدايا الملكة إلى الملك سليمان الحكيم، رد عليها قائلا:" أتمدونني بمال، فما أتاني الله خيرا مما

أتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلتأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون".

وهكذا رجعت الرسل إلى بلقيس بما قال سليمان عليه السلام فقالت:"والله عرفت، ما هذا بملك، إن هو إلا نبي، يا قومي هذا ما جاءنا، فلقد رفض الهدايا والكنوز، ولا يريد إلا أن نؤمن بإلهه الواحد الموجود، وبعثت إليه أني قادمة إليك بملوك قومي لتحدثنا عن دينك".

ثم توجهت إليه على رأس القوم، فأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يبهرها بمعجزة تذهل عقلها، فأمر واحدا من الجن أن يأتيه بعرشها ـ الذي لا مثيل له في كل الأرض ـ لتجده أمام عينيها حين تدخل قاعة الملك، فلما رأته كادت أن تكذب عينيها.

ولكن مسألة العرش هذه كانت أول الأشياء المدهشة، ولم تكن آخرها. فبعد أن رأت بلقيس القدرات الخارقة التي كان يتمتع بها سيدنا سليمان، ومعرفته لغة الطير والحيوان، وسلطانه على الأنس والجن وكل الكائنات، وجدت نفسها تتبع هذا الملك النبي الحكيم، وتؤمن أن لا إله إلا الله وحده

لا شريك له، وقد جاء في الإصحاح التاسع من أخبار الأيام الثاني:

صحيح الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، زدت على الخبر الذي سمعته، فطوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما والسامعين حكمتك، ليكن مباركا الرب إلهك الذي سر بك.

وبعد أن أسلمت بلقيس: تزوجها سيدنا سليمان، وكانت بلقيس صائنة لنفسها، فلم يراودها - من قبل أن تلقاه - حنين المرأة للزواج والإنجاب، بل كانت زاهدة في الرجال.

وربما أرجع البعض هذا السلوك إلى عدم وجود من يضارعها في المكانة، وقد أحرزت مجدا لم يصل إليه أحد من قبلها في تاريخ مملكتها، فلم تجد من بين الرجال من يرقى إلى عظمتها وجاهها أو يستحوذ على إعجابها وتقديرها، إلى أن وجدت هذه الصفات وأكثر في الملك سليمان الحكيم، فوجدت نفسها في حضرة ملك تسانده قوة لا قبل لها بها، مطلع على أسرار كونية تذهل عقلها، وتربك ثقتها، فتجاوبت خلجاتها مع أصداء ندائه، وأخلصت له قلبا

وقالبا، ثم راحت تنشر دعوة الحق بين قومها، وقد رزقت الملكة بلقيس بولد من نسل سيدنا سليمان عليه السلام اسمه رحبعم، ويقال إن سيدنا سليمان ـ بعد أن تزوجها ـ كان يلقاها في قصرها بمأرب كلما جاء يزورها، وكان هذا القصر تحفة فنية معمارية وأسطورة في أبهته وجماله، يخدمها فيه ألف وستمائه فتاة من أبكار البنات.

وظلت بلقيس تحيا كملكة معظمة طيلة حياتها، ولم تشهد مملكتها عصرا أزهى من عصرها.

أما ابنها رحبعم ابن سليمان، فقد توفي قبل وفاتها بسنة.

ولما ماتت بلقيس رثاها شعراء قومها، وظلوا يبكون عليها وعلى أيامها: باعتبارها أعظم ملكة.

زنوبيا

- <u>سيدة الشرق</u>

هي واحدة من أشهر ملكات التاريخ.

ولكن بالرغم من ذلك، فإن أصولها ليست معروفة على وجه الدقة.

فلقد اختلفت الآراء حول جذورها العائلية.

البعض قال إنها ابنة زعيم عربي.

والبعض الآخر قال: هي يهودية من سلالة سليمان الحكيم.

أما هي، فقد كانت تؤكد مفاخرة أنها من سلالة ملوك مصر العظام.

كانت جميلة، مثقفة، أجادت اللغات اللاتينية واليونانية والآرامية والقبطية، وكانت صاحبة علم واسع وإلمام عميق بتاريخ العالم، كما اطلعت أيضا على الفلسفة اليونانية، فقرأت كتب أفلاطون وهومر وغيرهما، وقد بلغ من تفوقها في علم التاريخ واهتمامها به أنها جمعت تاريخ الشرق: مصر وآسيا،

وقامت بكتابتها بنفسها، فظل هذا العمل دليلًا ناطقا على براعة هذه الملكة وسعة اطلاعها.

ولكن اللافت للنظر في شخصية زنوبيا صفتان أساسيتان، فقد كانت طموحة بشكل يفوق طموح الرجال، كما أنها كانت شجاعة وجريئة بحيث يصعب على المرء أن يصدق أن هناك امرأة تتصف بمثل شجاعة زنوبيا.

تزوجت زنوبيا من الأمير أوذينة، الذي كان يتزعم عدة قبائل في الصحراء، فاستطاعت بعد زمن وجيز أن تدفعه لتوسيع أملاكه، بثت فيه الروح القتالية، ووقفت بجانبه تؤازره في المعارك، وتشير عليه، حتى زادت فتوحاته وبسط سلطانه على كل الشام والجزيرة، بل لقد حارب سابور كسرى الفرس، وهزمه في موقعة شهيرة فلقب بملك الملوك.

ولكن لسبب غير معروف، قام ابن أخيه بذبحه غيلة وهو وسط قواده أثناء إحدى الغزوات.

فلما وصلت هذه الأنباء إلى زنوبيا، وكان أكبر أولادها "وهب اللات" مازال طفلًا، سارعت بإعلان نفسها ملكة على مقاطعات زوجها، ومن ثم لبست تاج الملك، وحكمت ملكة تدمر كملكة شرعية.

إن التاريخ ليذكر هذه الملكة المتفردة بكثير من الإجلال والتعظيم.

فهي الملكة العربية الفاتحة، والتي كانت أمجاد فتوحاتها وانتصارها في المعارك سببا لتلقيبها بـ"ملكة الشرق" وما إن اعتلت العرش حتى وجهت اهتمامها لتوسيع أملاكها، وانتهزت فرصة الفوضى السائدة في روما ـ نتيجة الاضطرابات والمشاكل الداخلية ـ فوجهت جيشها بعد أن أعادت تنظيم صفوفه، وقادته بنفسها نحو العراق وآسيا الصغرى حتى حدود أنقرة، فاستولت على تلك الممالك وضمتها إلى مملكتها.

ثم قادها طموحها لاحتلال مصر.

فقد ادعت فجأة أن لها حقوقا شرعية على مصر كونها سليلة كليوباترا إمبراطورة مصر.

وفعلًا وصلت جيوش زنوبيا إلى مصر، فاجتاحتها بسرعة، ودخلتها الملكة دخول الفاتحين المنتصرين، واستقبلها المصريون استقبال الأبطال، فأصبحت إمبراطورة على مصر، وبذلك امتدت إمبراطوريتها من شواطئ البوسفور حتى حدود النيل، فاستحقت عن جدارة لقب "سيدة

الشرق" ولو كان القدر قد أمهلها: لأصبحت سيدة العالم كله دون منازع، فقد كان طموحها لا يقف عند حد.

بعد أن أتمت زنوبيا فتح الممالك الشرقية، رجعت إلى عاصمة ملكها تدمر، تدبر شئون الحكم، وكانت إذا دخلت مجلسها أدخلت ابنها وهب اللات معها وأجلسته قربها، ولقد عاملت الرعية بالعدل والإنصاف، فكانت شدتها في تنفيذ العقوبات لا تتناسب مع رقتها وشفقتها بالمستضعفين والمظلومين، أما في سياستها المالية: فقد كانت مدبرة حكيمة، إلى حد أنها اتهمت بالتقتير والبخل، واشتهرت بتبنيها للمواهب الفنية والإبداعية، فكانت تفتح أبواب قصرها للشعراء والفلاسفة والفنانين والمبدعين، وتغدق عليهم من الأموال ما يفوق الحصر، فكانت نعم الراعية للفنون والآداب، كذلك فقد كانت تغدق أموالها على الحاشية الملكية عند كل مناسبة.

في عام ٨٦٨ م توفي الإمبراطور الروماني جليانوس، وخلفه على العرش الإمبراطور كلوديوس الذي لم يعترف بزنوبيا، ولم يقر نفوذها على الممالك التي هي في

الأصل ملك لروما، لذلك رأى أنه لابد لروما من إعادة بسط نفوذها على الممالك التي تحت سيطرة هذه المرأة.

من أجل ذلك أعلنت روما الحرب على زنوبيا.

وأرسلت عددا من الكتائب الرومانية بقيادة المحارب الشجاع "أورليان"

فلما علمت زنوبيا بقدوم الجيش لمحاربتها، استعدت وقادت بنفسها جيشها، فالتقى الجيشان في إنطاكية، وفوجئ القائد الروماني أن الملكة خصم عنيد لا يستهان به، وذلك حين أوقعت به وبجيوشه الهزيمة المرة تلو الأخرى، وفي كل اشتباك يحدث بين الجيشين تتقدم زنوبيا الصفوف بعزيمة وصلابة لا تعرف اللين ولا التعب.

وحاول" أورليان" أن يعقد هدنة مع زنوبيا، لكن روما وقفت له بالمرصاد، فقد ظلت تطالبه بالقضاء على الملكة التي تطاولت على عظمة الرومان، دون أن يدركوا صعوبة مطلبهم هذا.

ولكن لم يطل الزمن، فلقد مات كلوديوس، وخلفه أورليان على عرش روما.

فبادر من فوره لمفاوضة زنوبيا لإنهاء حالة الحرب بينهما.

ثم أوقف زحف جيوشه، واعترف بألقاب "وهب اللات" ابنها وامتيازاته، وأقر ولايته الشرعية على الأقاليم المفتوحة، وصكت النقود في أنطاكية والإسكندرية باسم وهب اللات وأورليانوس، فكانت على وجه منها صورة أحدهما، وعلى وجه الثاني صورة الآخر.

لكن كل هذه العروض لم ترض زنوبيا.

ولم تتوافق مع شخصيتها الطموحة الجامحة.

فعهدت بملك مصر لولدها وهب اللات، ومنحته جميع الامتيازات، وأزالت من النقود صورة الإمبراطور أورليانوس، ثم نادت بالاستقلال التام.

ومنذ هذه اللحظة، تدهور الوضع بين زنوبيا وأورليانوس تدهورا كبيرا.

كان رد أورليانوس على كل تلك الأفعال التي قامت بها زنوبيا أنه قرر أن يضع كل إمكانيات روما للقضاء على تدمر، وإزالتها من الوجود، وانطلق ليبدأ الزحف المنتقم.

التقى جيش روما وجيش الشرق في أنطاكية مرة أخرى، لكن القائد المحنك كان قد درس كل أساليب خصمه في القتال، واستطاع أن يضع لنفسه الخطط التي تضمن له الفوز، لذلك فقد رجحت كفة الميزان نحو روما هذه المرة، وحققت فوزها الأول على زنوبيا بعد عدة مناوشات حربية، فاضطر جيش الملكة للانسحاب حتى حمص، وهناك دارت معركة فاصلة حامية، انتصر فيها أورليانوس انتصارا ساحقا، فلم تجد زنوبيا أمامها إلا الارتداد إلى تدمر وتحصينها، فزحف أورليانوس خلفها، وحاصر تدمر حصارا شديدا، ثم طالب الملكة بتسليم المدينة، لكنها رفضت وظلت تقاتله من خلال الأبراج.

استمر حصار المدينة فترة طويلة، حتى بدأت المؤن تنضب شيئا فشيئا، وأصبح شبح الجوع يهدد سكان المدينـة المحاصرة، بينما الجنود يتساءلون: أليست هناك نهاية لهـذا الشقاء؟!

كل ذلك وزنوبيا صامدة، مقاتلة، موقنة من النصـر القريب.

وفجأة قررت أن تنقذ تدمر من المجاعة التي كـادت تلم بها، وأن تنفذ هذا الأمر بنفسها.

تنكرت سرا، وركبت ناقة عبرت بها أسوار المدينـة تحت جنح الظلام، ثم أخذت تتسلل عبر معسكر الرومان بكل جرأة وثبات، حتى تمكنت من تجـاوز منطقـة الحصـار، فسارعت في طريقها نحو كسرى تطلب معونته، وفي اليـوم التالي علم أورليان بخروجها فجهز فرقة من الخيالة وأرسلهم خلفها، وبينما كانت زنوبيا تهم باعتلاء أحد القـوارب علـى شاطئ النهر، خرج عليها جنود الرومان فجـأة، واعتقلوهـا وقادوها أسيرة إلى أورليان.

قيد أورليانوس زنوبيا بالسلاسل الذهبيـة، ورفـض فكرة أن يقتلها على الفور، فقد كان رغم كل شيء معجبا بها كخصم عنيد قوي.

ولما رأت زنوبيا انهيار ملكها، وكيف أصبحت ذليلة أسيرة بعد المجد والسلطان، بحثت حولها عن وسلية تنقـذها من هذا العذاب، وتضع حدا لحياتها الأليمة، فلمـا لـم تجـد امتنعت عن تناول الطعام حتى ماتت جوعا، وهي في قمـة كبريائها وشموخها.

الزباء

- <u>بيدي، لا بيدك يا عمرو</u>

كلمة الأزب في اللغة العربية تعني " الكثير الشعر"

ولقد لقبت الزباء بهذا اللقب: لأن شعرها الطويل كان أعجوبة للناظرين في كثافته وطوله، لدرجة أنها كانت حينما تمشي تسحبه وراءها.

أما اسمها الحقيقي، فقد ضاع بين صفحات التـاريخ القديم.

قال الطبري إن اسمها "نائلة بنـت عمـرو"، وقـال الكلبي إنه "فارعة" أما الذهبي فقال: اسـمها "ميسـون بنـت عمرو".

ولكن نسبها المؤكد يعود إلى والدها الملك عمرو بن طرف، الذي كان ملكًا على الشام والجزيرة.

اعتلت الزباء عرش المملكة، بعد مقتل أبيها على يد الملك جذيمة صاحب العراق، وذلك أثناء إحـدى المعـارك، وهكذا لبست الزباء تاج الملك وهي ثكلى تـذرف الـدموع، وتطلب ثأر أبيها من قاتله.

لكن الملك القاتل لم يكن هدفا سهلًا، فهو من أفضل الملوك قوة وأشدهم بأسا، وهو أول ملك أستطاع أن يوحد أرض العراق رغم عصيانها داخل مملكة واحدة، بل إن شجاعته وبسالته في القتال كانت مضرب الأمثال.

لذا فمن الواضح الجلي أن أي نزال بينه وبين الزباء سيكون فيه نهايتها المحتومة.

فما العمل ودم أبيها يطالبها بالثأر، وعوامل الفشل تحيط بها وتشل تفكيرها وترهب عزيمتها؟

أخذت الملكة الحزينة تفكر في الأمر طويلًا، وتقلبه على كل الوجوه.

كانت تعرف أنها لو هزمت أمام جذيمة، فكأنها أباحت له مملكتها صيدا سهلًا يعزز بها مكانته.

فهل تجازف؟ وتخوض حربا هي ليست كفؤا لها؟!

وحسمت الزباء الأمر. عدلت عن فكرة التصادم مع جذيمة في معركة غير متكافئة، فقد كانت تعلم بالضبط حجم قدراتها، وكان الغرور والعنجهية أبعد الصفات عن شخصيتها، فهي إنسانة منطقية وفوق كل شيء واقعية.

كانت تعرف أنها ليست صاحبة مواهب قتاليـة، وأن بلادها أنهكتها الحروب وقضت على خير جنودها.

فآثرت السلامة.

لكنها كانت تعلم أن قرارهـا هـذا لا يضـمن لهـا السلامة.

فعدوها ما زال متربصا بها، يتحين الفرصـة للنيـل منها وتحقيق أطماعه بغزو مملكتها.

إذن. فقد كان لزاما عليها أن تجد حلًا سـريعا لهـذه المشكلة، فأخذت تحصن المملكة على طول شط الفرات، كي تضمن تصديها للغزاة، ثم حفرت لها نفقا سريا وأخفته عـن أعين البصاصين والجواسيس، كي لا يعلم بوجـوده أحـد، وعندما أتمت تحصين مملكتها وتأمين حياتها، كتبـت إلـى جذيمة تدعوه إلى نفسها صراحة، وتعده بملكها، حيث قالـت له:

- لم أجد ملك النساء إلا قبيحا في الأسماع وضـعيفا في السلطان، ليس لي حيلة لضبط المملكة، فأنا لا أجد نفسي كفؤا لهذا الأمر الصعب، بل لا يصلح للأمر غيرك، فأقبـل

إلي اجمع ملكي إلى ملكك، وأصل بلادي ببلادك، فتقلد أمري مع أمرك.

فلما وصل كتابها إلى الملك جذيمة، وقرأ مـا فيـه لم يشك في نوايا الملكة، واستبشر خيرا حيث ارتجى ملكـا أوسع.

عرفت الزباء كيف تناوش أطماعه، وتحرك غرائزه، لوحت له بالمجد والسلطان، وهيأت له الطريق لضم الممالك دون عناء، بل وسلمت له نفسها وهي الجميلة ذات الحسـن الباهر التي يخطب ودها ملوك البلاد، فمن ذا الذي يـرفض منحة كهذه؟

لكن جذيمة رغم تحمسه لهذا العرض، لم يسارع في الرد عليها، قبل أن يناقش الأمر مع هيئته الاستشارية.

جمع أصحاب الرأي وخلصاء أتباعه، ناولهم مكتوب الزباء وطلب منهم ردا عليه، فما تمهلوا حتى قالوا: وهل في ذلك رأي؟ إنها تعرض عليك مملكتها بعد أن استبانت ضعفها وقلة حيلتها، وكيف لها وهي فتاة غرة لا حول لها ولا قـوة، لا قبل لها بمجاراة الملوك، ولا بصـدهم فـآثرت أن تسـلم

وتضمن السلامة، فالرأي أن تقبل فـورا عرضـها عليـك، وتتأهب في الحال للذهاب إليها مثلما أشارت.

لكن رجلا واحدا من الجمع، اسمه قصير، أدهشـهم بصياحه المفاجئ قائلا: رأي فاتر وغدر حاضر.

وكان هذا الرجل من أخاص أتباع الملك وكان يتميز بآرائه الصائبة، وتمتعه بالدهاء والحنكة فـي أمـور الحكـم والحكام، فخالفهم الرأي وسخر من أقوالهم، محاولا لفت نظر جذيمة إلى شرك يساق إليه، ومكر خلف الكلمات والوعـود البراقة.

لكن جذيمة كان قد حزم الأمر، وقرر قبول عـرض الملكة، خاصة بعد أن أقره ابن أخته عمرو بن عـدي علـى رأيه، واستحثه على سرعة تنفيذه، فسار جذيمة إلى الزبـاء على الفور يحيط به حرسه الخاص، بعد أن رفع عمرو بـن عدي على عرش العراق نائبا عنه فترة غيابه.

فلما اقترب من حدود مملكة الزباء اسـتقبله رسـل الملكة بالهدايا والورود، حتى إذا ما توغل في المملكة: فوجئ بجند الملكة يحيطون به من جميـع الاتجاهـات، بـدعوى مرافقته حتى أبواب القصر الملكي، فتوجس الملـك خيفـة،

ولاحت له دلائل الشرك واضحة، بالرغم من هذا فقد كـذب هواجسه، وبعد، فهو لم يعد بمقدوره التراجع ، وليس له من مخرج واحد.

وصل جذيمة أخيرا إلى قصر الملكة، وهناك سمحوا له أن يدخل عليها لكن وحده دون حرس، فلما رأته وكانـت جالسة على عرشها بعبائتها الملكية، قالت له: يا جذيمة.. هل تراني قد تزينت لك كعروس؟!

حينئذ علم جذيمة أنها قد مكرت به وأنه وقع صـيدا سهلًا بين يديها، فحاول أن يثنيها عن فكرة الانتقام ويحاورها بالعقل والحكمة، لكنها أصمت أذنيها عن سـماعه وجاوبتـه بعبارات العداء والقسوة، فلم يجد أمامـه إلا صـدى نزعـة وحشية متعطشة لسـفك دمـه ثـأرا وانتقامـا، ومـا هـي إلا لحظات، حتى أمرت الملكة، فاقتادوه إلى الموت.

وهكذا مات جذيمة قاتل الملك عمـرو، واسـتراحت الزباء بعد أن حققت هدفها وارتوت من دماء ألـد أعـدائها، فلما وصل خبر جذيمة إلى ابن أخته عمرو بن عـدي، ثـار ثورة رعناء، وأقسم لينتقمن من الزباء شر انتقام، وبدأ فعلًـا في إعداد جيوشه لاقتحام بلادها، وتدمير ممكلتها جزاء لهـا

على غدرها بخاله الملك، لكن "قصير" أدركه قبـل أن ينفـذ خطته واستمهله قائلا :

لقد ذهب خالك الملك الأعظـم ضـحية لتسـرعه، ولا أريد لك نفس المصير، فهذه الملكة الداهية شديدة الحـذر والذكاء، ماذا يفيدنا الزحف على بلادها وهي تستخفي عـن الأنظار مع كل خطر، فلا يصل إليها أحد، ولا يعرف بشـر أين تختفي، فأسرارها كثيرة، وأماكنها الخفية لا علم لنا بها. فرد عليه عمرو بن عدي وقد اقتنع بوجهة نظره ووجد أنهـا جديرة بالدراسة والتمحيص متسائلا: إذن بماذا تشير علي؟

وهنا فوجئ عمرو برد غريب، فلقد قال له قصـير: إن الحل عندي، لكني أطلب منك طلبا لا ترده ولا تعارضني فيه، وهو أن تضربني بالسوط حتى يتهرأ جلدي، ثم تجـدع أنفي!

ذهل عمرو من هذا الطلـب الغريـب الـذي أراده قصير، حتى كذب أذنيه، وراح يتفرس فيه، كأنه يشـك فـي قواه العقلية قبل أن يسأله مستفسرا: ولماذا تفعل بنفسك هذا، وكيف تريد مني أن أعذبك هذا العذاب؟

فرد عليه قصير: إما أن تفعل بي هذا ولا تسأل، وإما أن تنسى ثأر خالك؛ لأنك لن تصل إلى الملكة أبدا.

فلما سمع عمرو منه هذا القول، ورأى التصميم فـي وجهه، نفذ له ما أراده وهو في أشد حالات الدهشة، وإن كان قد علم أن قصير بفعلته هذه يمكر للملكة.

بعد ذلك خرج قصير من العـراق قاصـدا الزبـاء، متلمسا طريقه كأنه هارب وهو في أسوأ حال، فلمـا وصـل إلى قصرها، قيل لها: إن قصيرا بالباب يطلب المثول بـين يديك، فأمرت أن يدخل عليها، فلما رأته على هـذه الهيئـة الشوهاء، قالت له: من فعل بك هذا يا قصير؟!

فأجابها: فعله عمرو بن عدي، فقـد اتهمنـي أننـي غررت بالملك جذيمة خاله، وإنني زينت لـه السـعي إليـك فخدعته وسقته لك صيدا سهلًا، فاتهمني بالخيانـة وعـاقبني بتعذيبي، فأصبح حالي كما ترين، فلم أجد مكانا آوي إليه وقد أصبح العراق تحت نفوذه، فهربت، وقلت أحتمي بـك مـن غدر الزمان، فهل تقبلينني خادما مطيعا ومخلصـا ناصـحا أمينا، فأنا الآن ملك يديك وأفديك بروحي وحياتي.

لم تشك الزباء في كلام قصير، وقد رأت بعينيها أدلة صدقه ووحشية من انتقموا منه.

دخل عليها مكره الذي أتقنه، فأعطته الأمان وجعلته من ندمائها. أما قصير فلم يأل جهدا في كسب ثقة الملكة، بما كان يغدقه عليها من نصائح ثمينة، وآراء صائبة، فوجـدت فيها الزباء ضالتها المنشودة ونعم السند لها، فقـد اسـتحوذ عليها بحكمته وبراعته في تصريف شئون الحكم والرعيـة، فكان له من الحزم والقوة ما مكنها من إحكام قبضتها علـى المملكة، كما كان له من الخبرة والمعرفة ما أفاد الملكة فـي تدبير أمور رعيتها، ونهج سياسة ترتقي بالبلاد، فأصبح فـي فترة وجيزة أقرب المقربين إليها وأخلص المشيرين عليهـا، فلما تيقن أنها قد وثقت به ثقة عمياء، بادرها يوما بمشـروع عجيب!

قال لها: مولاتي الملكة، تعرفين كم أدين لك بالفضل، ومهما فعلت فلن أوفيك حقك لعطفك علي، لكن عنـدي لـك مفاجأة فيها الخير لك، راجيا بها أن أرادّ ولو جزءا ضـئيلًا من جميلك علي.

فلما استوضحته قال: إن لي في العراق أموالًا كثيرة كنت قد ادخرتها طيلة حياتي، فأنا أهبها لك هدية متواضعة، والأهم منها أنني قد وجدت أن المملكة تنقصها أشياء كثيـرة تمتلئ بها أسواق العراق، أستطيع أن أشتريها بأقل الأسعار، ثم نبيعها في المملكة، فنحصل على أرباح طائلة، فأنا أعرف كل ما في العراق من صنوف الحبوب والعطـور والثيـاب والعطور والثياب والأمتعة، وغيرها مـن المنتجـات التـي لا مثيل لها هنا، كذلك توجد في هذه المملكة أشـياء كثيـرة ليست موجودة في العراق، فأنا أري أن نقوم بعملية تجارية، فنربح من الأموال ما يفوق الحصر، وأنا ما أشـرت عليـك إلا بما فيه الخير لك.

وأخذ يعدد لها مزايا هذا المشروع التجاري، حتـى وافقت وزودته ببعض العير المحملة بالمنتجـات المحليـة، لبيعها في أسواق العراق، وشراء صنوف جديدة لم تكن تسمع عنها.

وبالفعل وصل قصير إلى العراق متنكرا، فدخل من فوره على عمرو بن عدي، وأطلعه على خطته، وحكى لـه ما صار معه، فأمر الملك أن يأخذ قصير كل ما طلبـه مـن

منتجات العراق من ثياب وعطور وأمتعة وحبوب وغيرهـا، فرجع قصير إلى الزباء محملًا بكل صنوف المنتجات المحلية العراقية، والتي تقدر بثروة طائلة تفوق أضعاف رأس المـال الذي أعطته الزباء، فانبهرت بما رأت، وفوق كل هـذا فقـد بيعت هذه المنتجات في أسواق المملكة، وربحت الزباء مـن ورائها أموالًا كثيرة، ففاز قصير بإعجابهـا، وازدادت مـن البعير ضعف المرة السابقة، ولم تبخل علـى هـذه الحملـة التجارية بمال وافر أنفقه قصير في شراء المنتجات الشـامية للمقايضة عليها في الأسواق العراقية، كالمرة الأولـى عـاد قصير بقافلة تجارية أكبر، ومنتجات عراقيـة أغلـى ثمنـا، وأكثر إبهارا حتى أدار رأس الملكة بالمكسب الوفير والهدايا المدهشة.

لكن في المرة الثالثة: عادت الإبـل مـن رحلتهـا التجارية محملة بالرجال بدلًا من البضائع.

فلقد وضع عمرو نهاية لصبره على الزباء، وفصـل في الأمر فإذا كل بعير تخبئ فوق ظهرها - تحت ستار من الثياب والمتاع - جنديا يحمل سلاحه فلقد تحين قصير الوقت المناسب: ليضرب ضربته وينفذ خطته، وكانت مفاجأة للملكة

غير متوقعة بالمرة، فلما توغلت العير داخل المملكة في ثقة واطمئنان، دون أن يعترضها عائق أو يشـك فيهـا أحـد، ووصلت بالقرب من قصر الملكة، إذا بصيحة مفاجئة، بعدها أظهر الرجال المختبئون أنفسهم وأعلنوا عن مقصدهم، وهموا بأهل المملكة، وأعملوا فيهم القتل والمذبحة.

أما الملك عمرو بن عدي فلم يضـع وقتـه، تـرك الأهالي للجنود، وتوجه هو إلى باب النفق الذي دلـه عليـه قصير، حيث تفر الملكة كعادتها عند الخطر.

وهناك على باب النفق وقف ينتظر الزباء.

فما هي إلا لحظات: حتى لمحها مهرولـة لتحتمـي بالنفق من بطش الجنود، فلما أبصرت عمرو: عرفته، وأيقنت من هلاكها، لكنها آثرت أن تضع بنفسـها نهايـة لحياتهـا، فعندما هم بها شاهرا سيفه، ليطعنها، سارعت هـي بوضـع خاتمها المسموم على فمها، وابتلعت ما فيه من سـم، لتخـتم بيدها فصول حياتها.

ولكنها قبل أن تلفظ أنفاسـها الأخيـرة، اسـتجمعت قواها، لتقول مقولتها الشهيرة: بيدي.. لا بيدك يا عمرو!

البسوس

- <u>أربعون عاما من الدم والشعر</u>

ارتبط اسم البسوس بحرب هي من أطـول وأعنـف الحروب العربية في الجاهلية.

فلقد استمرت هذه الحرب حوالي أربعين سنة.

وكانت البسوس هي السبب في اندلاع هذه الحـرب، التي راح ضحيتها عدد كبير من رجال أفضل العرب وزهرة شبابها.

فمن هي هذه المرأة التي تسببت فـي حـدوث تلـك المأساة؟!

البسوس: شاعرة من شاعرات العرب قبل الإسـلام، استطاع شعرها أن يشعل نار الفتنة والحرب بين قبيلتين من أكبر القبائل العربية.

فقد حدث في أحد الأيام، أن جاءهـا أحـد أقاربهـا ضيفا عليها، وكان اسمه سعد، فاستقبلته مرحبـة، وهيـأت ضيافتها على أحسن ما يكون، بل إنها زيـادة فـي إكرامـه

اهتمت بناقته "سراب" فسقتها وأزاحت عنها حمولتهـا، ثـم أطلقتها ترعى في الأنحاء.

لكن الظروف السيئة هي التي قادت الناقة سراب إلى منطقة تدعى "العالية" وكانت هذه المنطقة مرعى خاصا لسيد قبيلة بني تغلب "كليب بن ربيعة"، ولسوء الحظ كان كليب في هذا الوقت يتجول على ظهر فرسه، متفقدا أملاكـه، فراعـه وجود ناقة غريبة ترعي بين إبله، فاستاء من هـذا الإهمـال والتعدي، ثم سأل: لمن تكون هذه الناقة الغريبة؟ فقيل له: إنها تخص رجلًا نزل ضيفا على البسوس.

وكانت البسوس خالة جساس.

فالتفت كليب إلى جساس، وقال له مغاضبا: لا تعودن هذه الناقة إلى هذا الحمى بعد اليوم.

عندئذ فار دم الجساس في عروقه إزاء هذه اللهجـة المتعالية التي حدثه بها كليب، ومن ثم فلم يجد بدا من أن يرد عليه قائلًا: والله لتعودن مرة بعد مـرة، ولا ترعـى الإبـل إلا وهي معها.

فلما سمع كليب منه هذا القول، رد عليه مقسـما أن يضع سهمه في ضرع هذه الناقة لو رآها مرة أخرى.

وفي اليوم التالي خرج كليب يتفقد إبله، فلمـا لمـح الناقة "سراب" بينها، رماها بسهم فأصاب ضرعها، فأسرعت تهرول مخضبة بدمائها وهي تنازع الموت، فلمـا وصـلت قرب مكان صاحبها سعد المقيم عند البسوس، خرت صريعة، فلما رآها على هذه الحالة، أخذ يصبح وينوح على ناقته، فأثر هذا المشهد المحزن على قلب البسوس، فصاحت تنشد هـذه الأبيات:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ
لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا كليب لا تغرر بنفسك وارتحل
فإنك في قوم عن الجار أموات

وكانت تلك الأبيات التي ألقتها البسوس بداية لسلسلة الحوادث المفجعة والمآسي الرهيبة، والتي كان لهذه المـرأة دور البطولة فيها.

لما سمع جساس شعر البسوس تحركت نخوته.

فكيف يهان الضيف وتقتل ناقته، وهي في حماية سيد بني بكر، أي عار هذا؟

وكيف ترضى كرامته الصمت على هذه الإهانة؟

إذن لابد من معاقبة الجاني.

وهكذا ردا على هذه الفعلة الشنعاء: أقسم جساس أن يدفع كليب الثمن، وبسرعة خرج حاملًا رمحه، ممتطيا فرسه، وراح يبحث عن كليب، فلما رآه عدا نحوه حتى وصل إليـه من خلفه، كان كليب يسمع وقع حوافر فرس جساس، لكنـه يأبي أن يلتفت إليه، حينئذ طعنه جساس برمحه طعنة قاتلـة، ثم تركه، وعاد إلى دياره، مضطربا، تعلو وجهـه صـفرة الندم، فلما لقيه أبوه على هـذه الحـال سـأله: مـاذا بـك يا جساس؟ فحكى له جساس كل ما حدث، ولما فرغ، صاح فيه أبوه: بئس ما فعلت بقومك، قتلت سيد تغلب مـن أجـل ناقة، والله لقد حل بنا الخراب.

وبالفعل فقد توالت الأحداث الرهيبة بعد مقتل كليب.

فقد أقسم أخوه" عدي" المعروف بـ ـ" المهلهـل" أن ينتقم لأخيه بقتل آل مرة جميعا.

لكن قومه اجتمعوا عليه، وأقنعـوه بعـد إلحـاح أن يتفاوض مع بني مرة قبل إعلان الحرب عليهم، فذهب وفـد من الأشراف إلى مرة وأطلعوه على شـرط عـدي لحقـن الدماء، وقد كان هذا الشرط هو أن يسلم إليه مرة الجسـاس ليقتله أو أخاه همام.

فأجاب مرة: يا أخوتي، أما جسـاس فقـد هـرب، ولا أدري أين هو، وأما همام فهو أب لعشر رجال وأخ لعشر رجال، فأنا لا أقدر على تسليمه وليس لي في الأمر حيلة.

وكان هذا الرد بمثابة إعلان الحرب بين القبيلتين.

فقرعت الطبول وانضمت القبائل يناصـر بعضـها بعضا.

وأخذ القتلى يتساقطون، ورمـال الصـحراء تبتلـع دماءهم طيلة أربعين سنة، والبسوس مـن وراء الجيـوش تلهب حماستهم بكلمات من نار، وتذكي روح العـداوة فـي قلوبهم إن جنحوا للسلام.

وعلى الجانب الآخر، كان المهلهل، الذي لا يتـوانى عن أخذ الثأر وتحقيق وعده بالقضاء على بني مـرة، مهمـا

كانت التضحيات، وهكذا ظلت نيران هذه الحرب مسـتعرة، حتى قتل المهلهل أخيرا.

إمامة بنت الحارث

- ## صاحبة أشهر وصية عربية

اشتهرت إمامة في زمانهـا بأنهـا ربـة الفصـاحة والرأي.

كانت معروفة بحكمتها في كل الأمـور، يقصـدها الناس في الأزمات فتشير عليهم بالآراء التي تنفعهم، وكانت في ذكائها وبلاغتها مضرب الأمثال.

ولعل التاريخ لم يضن علينا، حين ترك لنا الوثيقـة النافعة الشهيرة، والتي وجهتها إمامة إلى ابنتها، تبصرها فيها بمفاتيح السعادة الزوجية، فإن ما احتوت عليه هذه الوثيقة من وصايا جليلة: ليدل - بما لا يدع مجالا للشـك - أن هـذه السيدة قد تميزت في زمانها بالحكمة والنبـوغ فـي الـرأي والقول.

جاء الحارث بن عمرو ملك كنـدة يخطـب ابنتهـا أم إلياس بنت عوف بن محلم الشيبانى، فزوجها أبوها منـه. ولكن قبل أن تفارقهم الابنة إلى ديار زوجها، انفـردت بهـا أمها إمامة، وأخذت توصيها أن تحسـن معاشـرة زوجهـا،

وألا تغتر بنفسها عليه، ولا تثقله بالأعباء المادية، بل تكون له نعم السند، فتحافظ على صحته وأمواله بالاقتصاد في المال والتدبير، وبتنظيم أوقات طعامه، وضمان الهدوء في نومه واسترخائه وأن تحذر كل الحذر: من إفشاء أسراره، أو السخرية من آلامه، والتلهي عن أحزانه.

وقد كانت وصية إمامة لابنتها هي الورقة السحرية التي ضمنت لها السعادة الزوجية، فلقد أغرم بها زوجها، وأصبح لا يجد في العالم من هو أفضل منها، أو حتى كفؤا لها، فزاد إخلاصه، وتمكن حبها من قلبه، وأسبغ عليها من العطف والطاعة، والوفاء والإكرام ما قد أصبح مضرب الأمثال، أما هي فقد ولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.

ولقد رأيت أن أورد نص الوصية، لما فيها من منفعة كبيرة، وخبرة بالنفس البشرية عظيمة.

نص الوصية

"يا بنيتي: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، إنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها أو شدة حاجتهم إليها كنت أنت أغنى الناس عنه، لكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبا، ومليكا، فكوني له أمه، يكن لك عبدا وشيكا، يا بنية احملي عني عشرة خصال تكن لك ذخرا وذكرا:

الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه منك علي قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير، ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له

أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحا، والاكتئاب عنده إن كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني له أشد ما تكونين إعظاما، يكن لك أشد ما يكون إكراما، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن لك هو أطول لما تكونين له موافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين، حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت، والله يخير لك".

الملكة ماوية

- <u>عاشقة الرجال</u>

هي.. ماوية بنت عفزر. ملكة من ملكات العرب في الجاهلية.

لم تشتهر بسياسة فذة في الحكم، أو بفتوحات مجيدة تكتب في سجل أعمالها، أو حتى بمواقف متميزة مع الرعية.

لكنها اشتهرت بسبب خصلة غريبة فيها.

فقد كانت تلك الملكة عاشقة الرجال!

جارت ماوية الملوك الرجال في تقلب أهوائهم، وتشبهت بهم في مسألة تعدد العلاقات، فقد كانت شغوفة بالرجال، مزواجة، اشتهرت بكثرة زيجاتها التي لا تعد ولا تحصى، وكانت تبدل أزواجها، ربما أكثر مما تبدل ثيابها، ولم تكن تهتم باختيار هؤلاء الأزواج، بل يكفي أن يحوز رجل ما على إعجابها حتى تتخذه فورا زوجا لها، فهي صاحبة الرأي تماما في هذا الموضوع، فلم تكن تضيع وقتها بالتمهيد لهذا الزوج بعلاقة غرامية أو ما شابه، بل لم تكن حتى تشغل بالها بأشياء معينة، مثل إذا ما كان الطرف الثاني

"الزوج المنتظر" راغبا فيها أم لا؟ بل كانت تأمره فيفعل! ويبدو أن هذه الملكة لم تكن جميلة جدا.

ويبدو أيضا أن طريقتها هذه مع الرجال، كانت تضعهم وتضعها في مواقف حرجة!!

فحكايتها مع "حاتم طيء" تحمل هذه الدلالات.

في يوم من الأيام استدعت ماوية ثلاثة من خلصاء حاشيتها، وأمرتهم أن يتوجهوا إلى البحيرة ويبحثوا عن أوسم الرجال فيها، ويأتوا به إليها، فجاءوا بحاتم طيء، فلما طالعته، استحسنته، وقبل أن يدرك حاتم أي سبب لوجوده، أخذت الملكة بيده وقادته إلى حجرتها الخصوصية، وهناك طالبته بالزواج منها، بهت حاتم من هذه المفاجأة وتحير من جرأة هذه الملكة، ووثوقها التام من تنفيذ رغبتها، لم يدر ماذا يفعل للخروج من هذه الورطة، فإن آخر ما يفكر فيه أن يتزوج بهذه الطريقة، لكن حاتم لم يجرؤ على أن يجهر برفضه، فآثر أن يراوغها إلى أن يتمكن من الفرار.

وقد نجح حاتم في تنفيذ خطته، ونجا بجلده من براثن الملكة ولكن إلى حين.

فبعد عدة مغامرات ومناقشات رفع حاتم بمحض إرادته الراية البيضاء، ورحب بالزواج من ماوية بعد وفاة زوجته، وعاشا معا فترة، أنجبا خلالها "عديا" ولكن لم يكد يمضي وقت طويل، حتى طلقت ماوية نفسها من حاتم، وتزوجت من ابن عم له اسمه مالك!

الخنساء

- <u>شاعرة العرب</u>

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشديد، من قبيلة بني سليم، وقد عرفت واشتهرت بـ "الخنساء" لأن "أرنبة" أنفها كانت مرتفعة، ولقبت بهذا اللقب الذي عرفها به الناس.

نشأت الخنساء في ديار بني سليم، في بوادي شبه الجزيرة العربية، حيث تعتمد أكثر القبائل على تربية الإبل والمواشي، لذا كانت تنقلاتهم كثيرة طلبا للعشب والمرعى.

وحياة البادية تختلف عن حياة المدن.

فهنا يصفو وجه السماء، وتزدان الروابي بالخضرة حينا، لكن الأرض سرعان ما تقسو على أهلها، فيجدون أنفسهم وسط الجفاف القاسي والجدب المدقع المرير.

هذه الطبيعة المتغيرة هي التي أرهفت مشاعر سكان البوادي، فتميز الأعراب عن غيرهم بطبيعة شاعرية مرهفة، أو خشونة وشجاعة واستهانة بالخطر.

وفي هذه الأجواء الملهمة ترعرعت الشاعرة، واستقت موهبتها، فما كانت تشب، حتى ظهرت بوادر نبوغها وعبقريتها في أبيات تقولها في المناسبات، لا تزيد عن بيتين أو ثلاثة، فاشتهرت بين قومها كشاعرة سليمة المنطق، مستوية البيان.

وإذا كان المؤرخون عجزوا أن يحددوا تاريخ ميلاد الخنساء على وجه الدقة، إلا أن موهبتها فعلت ذلك.

فإن تاريخ تماضر بدأ مع ذيوع صيتها كشاعرة.

واتفقت الآراء على أنها ولدت في حوالي منتصف القرن الأول قبل الإسلام.

إلى هذه الدرجة كان الشعر والشعراء مركز مرموق لدى العرب.

ولكن من ذا الذي كان يتوقع أن هذه الفتاة الرقيقة الهادئة، تحتل يوما ما مكان الصدارة في قائمة شعراء العرب؟

كانت حياتها تسير على وتيرة وادعة، لا يشوبها إلا الهواجس التي تعتريها كلما خرج أبوها أو أخواها للقتال في بعض الغزوات، لكن هذه الهواجس سرعان ما كانت

تتبدل بفرحة اللقاء، حين يعودوا غانمين ظافرين من ساحة المعركة، إلى أن حدثت الوقعة التي زادت من شهرتها وكشفت عن معدنها، فظلت حديث القبيلة لفترة طويلة.

ذلك أن سيد بني جشم، وفارسها المظفر، خرج يوما يحف به جمع من رجال قبيلته وفرسانها قاصدين مكة، وطبعا، ما كان لعربي أن يسأل من يكون السيد؟ فليس بين العرب من يجهل "دريد بن الصمة" الفارس الشجاع، والشاعر المرموق، والقائد الداهية، وقد شاءت الظروف أن يقرر هذا الفارس الاستراحة قليلًا من عناء السفر في مكان قريب من ديار بني سليم، فلما ارتاح الركب امتطى دريد فرسه متجولًا في الأنحاء، حيث وقع بصره على مشهد ملك فؤاده، رأى أمامه فتاة مليحة مرتدية ثوبا مهلهلًا، يكشف عن مفاتنها أكثر مما يغطيها، منهمكة في معالجة أحد البعير من الجرب بطلائه بالقطران.

فراح يراقبها من بعيد، وهي لاهية عنه، حتى فرغت من عملها ورجعت إلى ديارها وهو يتبعها كي يعرف ابنة من هي.

كانت قد أسرته بمفاتنها وحسنها وقوامها الممشوق، فشغف بها دون أن تدري.

وفي الحال، توجه دريد إلى أبيها يطلب يدها، فقال له: مرحبا بك أبا مرة، إنك الكريم الذي لا يطعن في حسبه، والسيد الذي لا يرد عن حاجته، ولكن لهذه المرأة من نفسها ما ليس لغيرها...

سأذكرك لها وأعرف ردها.

انصرف دريد، ودخل الأب على ابنته وقال لها:

- يا خنساء.. أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم، دريد بن الصمة، يخطبك، وهو الغني عن التعريف، فما قولك؟!

لكن الخنساء فاجأت والدها برفض دريد.

وقالت له موضحة سبب الرفض: أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح، وناكحة شيخ بني خشم؟!

وعندما عاد دريد يستطلع ردها، صدمه رفضها له، فقال أبوها له: لعلها توافق فيما بعد.

فلم ييأس دريد، وعاد الكرة، فازداد نفورها منه، حتى إذا تيقن من استعصامها ورفضها، راح يهجوها بقصائده.

ولم تمض إلا أيام، حتى شاعت قصة دريد وتماضر، وأصبحت حديث مكة والعرب، وقد نقمت هوازن على بني سليم، فقد كانت تعتز بسيدها وشاعرها الذي كان أشبه ببطل أسطوري في فروسيته وشجاعته، فأنكرت أن ترفضه فتاة من العرب، وهو السيد ذو المكانة.

وحين بدأ دريد يهجو الخنساء بشعره، سألتها إحدى صديقاتها: لماذا لا تردي على هجائه لك وأنت الشاعرة القديرة؟

فأجابت الخنساء: لا أريد أن أزيد من محنته: فأعذبه مرتين، مرة برفضي له وأخرى بهجائه.

تزوجت الخنساء بعد ذلك واحدا من قبيلتها، اسمه رواحة بن عبد العزى، أنجبت منه ابنها أبا شجرة، لكن الحياة بينهما صارت مستحيلة، بعد أن أدمن لعب القمار، حيث كان ينفق كل ماله في اللعب، فضاقت عليها عيشتها، حتى اضطرت أن تمد يدها إلى أخيها صخر، تطلب منه

النقود، لكن حتى هذه النقود التي أخذتها من أخيها سرعان ما ضاعت هي الأخرى بنفس الطريقة، ورغم هذا الوضع المؤلم، وحالة اللااستقرار التي كانت الخنساء تعيش فيها مع هذا الزوج المقامر، إلا أنها تحملت ورفضت التسرع في الانفصال إشفاقًا على ولدها.

عادت الخنساء إلى أخيها تشكو حالها، وتطلب منه المساعدة، فقسم أخوها صخر ماله شطرين، أعطاها الجزء الأكبر واحتفظ لنفسه بالباقي.

فلما رجعت إلى زوجها بالنقود، وامتلأت بها يداه هاجت شهوته إلى المقامرة، فانطلق إليها ولم تمض أيام قليلة، حتى كان قد أضاع النقود كلها.

وهكذا وجدت الخنساء نفسها تدور في حلقة مفرغة، وليس هناك مخرج.

حينئذ قامت الخنساء فعزلت زوجها وطلقت نفسها، وعادت إلى بيت أبيها، وهي ما تزال فتية تفور دماؤها بعنفوان الشباب، لكنها لم تمكث طويلا، فسرعان ما تزوجت رجلا آخر من أبناء عمومتها أيضا، هو مرداس بن أبي عامر السلمي، الذي كان يلقب بـ"الفيض" لسخائه وكرمه،

وولدت الخنساء منه أربعة بنين، هم العباس وجزم ومعاوية وهيبرة، وبنتا هي عمرة بنت مرداس، لقد ظفر مرداس من الخنساء بما لم يظفر به أحد سوى أخويها، فلقد جادت عليه بمرثية تشيد فيها بحسن شمائله وجميل صفاته، فلقد كان مرداس في رأيها خير الناس، فجاءت القصيدة من تروع الخنساء بفقد أخويها، وإلا ما كانت لتقول شطرا واحدا، فلقد أقسمت بعد وفاة أخويها: ألا تقول الشعر إلا رثاء لهما.

ولقد كانت مأساة مقتل أخويها، معاوية الذي قتل في إحدى المعارك، ثم من بعده صخر الذي خرج يطلب ثأر أخيه، فأصيب بطعنة قاتلة ظل يعاني منها حتى الموت بعد فترة، ومعايشتها هذه الأحداث الأليمة سببا في تغيير مجرى حياتها، وتفجير طاقات الشعر الكامنة في أعماقها، فانطلقت ترثي أخويها بشعر يذهب العقول ويفيض الدموع، وكأنها تريد أن يبكي كل البشر معها على أخويها، فتفجرت كلماتها رثاء يفطر القلب ألما وحزنًا، خلدت حبها لهما أشعارا لا تمحى من ذاكرة التاريخ.

ولا يسعنا إلا أن نتعجب من مقدار هذا الحب الأخوي النادر.

فإن الخنساء ظلت تبكي معاوية وصخر، وتقول فيهما الشعر حتى آخر أيامها.

والغريب أنها لما استشهد أولادها الأربعة في معركة القادسية، وكانت قد أسلمت هي وقومها، لم ترث أحدا منهم ببيت واحد، ملتزمة بقسمها ألا ترثي سوى أخويها الحبيبين، فانطلقت محلقة في سماء الشعر تذهل الأسماع، وتخاطب الوجدان، فعلا نجمها، وسطع، وذاع صيتها في البلاد، وأصبح الزائرون يفدون عليها من كل مكان، يسألونها ويشافهونها، ويعايشون محنتها فيتأسون معها، وصارت الركبان بمراثيها حتى اشتهرت في البلاد.

تقدير النبي للخنساء

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يستمع من الخنساء نفسها، فكان يطلب إليها أن تنشده، وتقول له بعض مراثيها، فكان حين يستمع لها يغدق الثناء عليها.

ويروى أن رسول الله صلى عليه وسلم لما وفد عليه "بنو طيء" مسلمين، قال له عدي بن حاتم الطائي:

- يا رسول الله، إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: سمهم (أي اذكر أسماءهم).

فقال عدي: أما أشعر الناس فهو "امرؤ القيس" وأما أسخى الناس فهو "حاتم بن سعدة"، وأما أفرس الناس فهو "عمرو بن معد يكرب".

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس كما قلت يا عدي، فأما أشعر الناس فـ" الخنساء بنت عمرو" وأما أسخى الناس فـ" محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وأما أفرس الناس فهو" علي بن أبي طالب".

قيل لجرير ـ الشاعر العظيم ـ من أشعر الناس؟ فقال: أنا، لولا الخنساء.

فقيل له: لم فضلتك؟

فقال لقولها:

أن الجديدين في طول اختلافهما

لا يفسدان ولكن يفسد الناس.

الجديدان: هما الليل والنهار.

وكان من عادة العرب أن يجتمع شعراؤها في سوق عكاظ يتبارون في فنون الشعر والخطابة، وهناك كان ينصب

للنابغة الذبياني ـ أمير شعراء العرب ـ قبة حراء، حيث يجمع أعظم شعراء العرب، فمن حكم الذبياني بإجادته وتفوقه، تكتب قصيدته على الحرير، وتعلق فوق أستار الكعبة، من أجل ذلك فإن لأصحاب المعلقات مكانة رفيعة ومنزلة سامية بين جميع الشعراء، ذلك لأن معلقاتهم فازت بأنها من أجمل الشعر وأحكمه، فقد كانت العرب تقدس البلاغة تقديسا يصل إلى حد العبادة، فأوصلهم ذلك إلى مراتب الكمال في التوسع اللغوي، حتى أصبح قول الشعر طبيعة تجري على ألسنتهم وينطق به كبيرهم وصغيرهم، وكانت الخنساء تحضر هذه السوق وتلتقي بالشعراء، تسمع منهم ويسمعون منها، وفي يوم تقدمت إلى المسابقة ليحكم النابغة في شعرها، فألقت إحدى قصائدها، فاستحسنها السامعون وحكم لها النابغة بأن قال: والله لولا أن سبقك الأعشى للمجلس والتحكيم، لقلت أنك أشعر الجن والإنس، وقد ظل حكم النابغة لها يضفي هالة من المجد عليها وفيض من إجلال وتكريم.

وفي واقعة أخرى قامت بينها وبين حسان بن ثابت في سوق عكاظ مناقشة مثيرة، وقد تأثر الحاضرون، وقام

حسان يقول:" لم أر والله امرأة أشعر منك"، فقالت له:" ألا تريد أن تقول إنني أشعر الرجال أيضا"، فأجابها بغرور: كلا أنا أشعر منك، ألم تسمعي قولي:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خلا وأكرم بنا ابنا

فنظرت إليه الخنساء بازدراء، وقالت له:

- إنك لعاجز في هذا الشعر، ولقد أخطأت في ثمانية مواضع منه.

فسألها عن مواضع الخطأ، فأجابته برزانة ووقار:

- قلت "جفنات" والجفنات جمع قلة، وكان الأجدر أن تقول" الجفنان" وقلت" الغر" ولا يقال الغر إلا لبياض الجبهة، ولو أنك قلت "البيض" لكان المعنى أتم، وإنك تقول "يلمع" واللمعان يفيد النور الضعيف، وكان الأجدر بك أن تقول "يشرقن"، وقلت "بالضحى" مع أن وقت الضحى لا يأتي من الضيوف إلا النزر اليسير، ولو قلت "مساء" لكان المعنى أتم، وقلت "أسياف" بجمع القلة ولو أنك قلت "سيوف" لكان دليلا

للكثرة، وقلت "يقطرن" فدللت بذلك على قلة عدد القتلى، ولو قلت "يجزين" لكان أبلغ، ثم إنك تقول "دما" ولو قلت دماء لكان أتم، ثم إنك تفتخر بالأخلاف منكم، ولا تفتخر بمن سلف.

فخجل حسان، وخرج من المجلس غاضبا.

بقي أن نذكر أنه تقريبا لا يوجد كتاب من كتب الأدب العربي القديمة، يخلو من ذكر الخنساء أو الاستشهاد بشيء من شعرها، فاليزيدي مثلا يختار مرثية لها في "أماليه" وكذلك فعل البحتري، و"المبرد" يؤثرها بالذكر في حديثه عن أفضل المراثي، وقدامة بن جعفر يشهد بشعرها في المختار من أبيات الرثاء، كذلك لم ينسها أبو العلاء في رسالة الغفران، أما أبو الفرج الأصفهاني فقد احتفل بها كشاعرة العرب.

ولم تلق الخنساء هذا الاهتمام من علماء العرب فحسب، بل إن المستشرقين أيضا كان لهم اهتمام خاص بالخنساء، فها هو كرنكوف يكتب عنها في دائرة المعارف الإسلامية ترجمة وافية، كما ألف المستشرق جبريللي كتابا أسماه "عصر الشاعرة الخنساء وحياتها" طبع بالإيطالية في

فلورنسا عام ١٩٩٨. وفي عام ١٩٠٤ نشر رودو كاناكيس كتابا عن "الخنساء وميراثها" طبع باللغة الألمانية، أما الأب كوبييه، فقد نشر ديوانها بعد ترجمته إلى الفرنسية في بيروت عام ١٨٨٩، كما ترجمت قصائدها في عدة دواوين أوربية، وأيضا كتب عنها بروكلمان في "تاريخ الأدب العربي".

أما في العصر الحديث، فإن عدد الكتب التي تتكلم عن الخنساء أو تنشر قصائدها: يفوق الحصر.

وقد عاشت الخنساء لكي ترى الناس يرددون شعرها، وبعد أن ماتت أصبحت مراثيها على لسان العرب في كل مكان.

نسيبة الأنصارية

- المقاتلة الشجاعة

قليلات من النساء من لهم هذه الميزة الخارقة!

قليلات من النساء من لهن المقدرة على حمل السلاح، وخوض المعارك، والقتال في الصفوف، جنبا إلى جنب مع الرجال.

هي واحدة من هؤلاء القليلات.

إنها نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف الأنصارية، كانت صحابية جليلة، واشتهرت بأنها مجاهدة عظيمة، وتميزت بالصلاح والدين والنسك والاعتماد على النفس.

أسلمت مع المسلمين الأوائل، وفي "غزوة أحد" أصرت أن تخرج مع زوجها زيد بن عاصم وابنيها حبيب وعبد الله، الذين خرجوا جميعا مجاهدين في سبيل الله مع رسوله الكريم: لكي تساعد في الصفوف الخلفية، تداوي الجرحى أو تسقي المجاهدين، ولكن لما اشتد وطيس المعركة، وحمي القتال، ورأت الكفار وقد استأسدوا وأوقعوا الهزيمة في صفوف المسلمين، تركت السقاية والتمريض

والصفوف الخلفية، واندفعت شاهرة السيف تتخطى الصفوف باحثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وجدته: وقفت منحازة تقتل بسيفها الكفار الذين تكتلوا يسعون للقضاء على النبي عليه الصلاة والسلام، ولما برز من بين الصفوف أحد الكفار، وهو ابن قميئة يصيح "دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا" تصدت له نسيبة في الوقت الذي اعترض طريقه مصعب بن عمير وآخرون، وراحت تقاتل في جرأة وشجاعة، حتى أصيبت بعدة طعنات، ومع ذلك واصلت الجهاد، وظلت في قلب المعركة: تقاتل بالسيف أو ترمي بالقوس.

وقد حدثت نسيبة عن واقعة "أحد" فقالت: انكشف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما بقي ما يتممون عشرة وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه، نذب عنه، وندافع، ورآني صلى الله عليه وسلم وليس معي ترس، فلمح رجلا منسحبا من المعركة ومعه ترس، فقال له: ألق الترس إلى من يقاتل، فألقى الرجل ترسه إلي فأخذته، ورحت أذود به عن رسول الله صلى عليه وسلم.

وقد جرح ابن نسيبة أثناء المعركة جرحا نافذًا، وأخذ الدم يسيل منه، وكانت أمه على مقربة منه، لكنها لفرط انهماكها في القتال والطعان، لم تنتبه إلى جرح ابنها، حتى سمعت صوت النبي عليه الصلاة والسلام ينادي على ابنها صائحا له "اعصب جرحك" فلما سمعت ذلك تنبهت إلى ابنها، وأخذته وأحضرت له ما كان معها من معدات لإسعاف الجرحى، فطهرت جرحه وعصبته، ثم قالت له: والآن انهض وحارب.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقبها وهي تفعل ذلك، فقال: ومن يطيق ما تطيق أم عمارة.

وكانت تلقب بهذا الاسم.

ثم أقبل الرجل الذي أصاب ابنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها: هذا ضارب ابنك. فانقضت عليه نسيبة تطلب ثأر ابنها، فضربت ساقه فوقع، وأجهز عليه آخرون حتى مات، وفي رواية: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "لمقام نسيبة اليوم خير من مقام فلان وفلان".

وقد جرحت نسيبة في معركة "أحد" ثلاثة عشر جرحا، وكان النبي عليه الصلاة والسلام جزعا عليها، فلما انتهت المعركة أرسل فور وصوله إلى بيته عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها ويطمئن عليها، فلما رجع يقول إنها بخير تداوي جرحها سر النبي صلى الله عليه وسلم، وهدأ باله.

وقد حاربت نسيبة بعد ذلك في جيوش المسلمين بعد "أحد" ولما مات الرسول الكريم، وتولى أبو بكر الخلافة وحدثت الردة، جاءت إلى أبي بكر الصديق: تستأذنه في الخروج محاربة مع الجيش الذي نظمه خالد بن الوليد لقتال مسيلمة والذين معه، فقال لها: قد عرفنا جزاءك في الحرب، فاخرجي على اسم الله، وأوصى خالد بن الوليد بها، وقد حاربت نسيبة مع المسلمين ضد جيش مسيلمة بضراوة وشجاعة، وجاهدت خير جهاد، وظلت تحمل سيفها وتسدد الطعنات وتحصد الأرواح، دون أن تبالي بجرح يصيبها، وكانت مضرب الأمثال في براعتها القتالية وثباتها في المعركة، وبعد أن انتهت الحرب فوجئ الجميع أنها كانت تقاتل وهي مجروحة أحد عشر جرحا، وفي هذه الحرب مات ولدها شهيدا، وقطعت يدها وهي تجاهد.

بعد أن عادت نسيبة إلى بيتها، بادر أبو بكر الصديق بزيارتها والسؤال عنها، فقد كانت لها مكانة عظيمة، وكانت موضع احترام وتقدير من قادة المسلمين على الوجه الأخص لما عاينوه بأنفسهم من بسالتها وإقدامها، فقد كانت فخرا لكل مسلم.

إن مهارتها كمحاربة صفة نادرة في النساء، إلا أنها تفوقت في هذه الموهبة على كثير من الرجال، حتى نستطيع أن نقول إنها حازت مجدا بطوليا لا يناله إلا القوي من الرجال، بالإضافة إلى ذلك: فقد تفردت نسيبة بقدرتها على التحمل والتغلب على الآلام، وقد كان خالد بن الوليد ـ القائد العظيم ـ دائم السؤال عنها، يزورها كثيرا ويتودد إليها، ويكن لها في داخله كل مشاعر التكريم والتعظيم.

وقد روت نسيبة ـ الملقبة بأم عمارة ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنها ابنها، وروى عنها كذلك الحارث بن عبد الله بن كعب وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم.

كذلك روى لها الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقد روى عكرمة عن نسيبة أنها ذهبت إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقالت له: ما أرى كل شيء إلا للرجال، ما أرى النساء يذكرن، فنزلت الآية: "إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات..." الخ الآية.

هند

- <u>من آكلة الأكباد إلى راوية الأحاديث</u>

هي هند بنت عتبة بن ربيعة.

واحدة من أشهر نساء العرب.

وقد اشتهرت هند بسبب كل الأعمال الفظيعة التي ارتكبتها ضد المسلمين أيام معاركهم الأولى، ثم بسبب أنها زوجة أبي سفيان، وأم معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين، وأول الخلفاء الأمويين.

وكانت فارسة وشاعرة ذات حسن وجمال، ورأي وفصاحة، وعزة نفس.

تزوجت مرتين، زوجها الأول هو الفاكهة بن المغيرة أحد فتيان قريش.

وكان له بيت يتخذه كمضيفة، فيتوافد الزائرون عليه ليلا ونهارا بلا استئذان.

وذات يوم خلا البيت من الزوار، فرأى الفاكهة وهند أن يأخذا قسطا من الراحة، وما هي إلا لحظات حتى استغرقا في نوم عميق، لكن الفاكهة أرق فنهض لبعض حاجته،

وخلال ذلك أقبل رجل ممن كانوا يترددون على البيت، وحين دخل رأى هند نائمة فارتد من فوره، لكن الفاكهة رآه، فأقبل على هند وضربها وهو يسألها: من الذي خرج من عندك؟ فقالت: ما رأيت أحدا، ولا انتبهت من نومي إلا الآن. فلم يصدق كلامها وأذهب ذلك عقله وقال لها: ارجعي إلى أمك.

وكان رجوع هند إلى أبيها بسبب تلك التهمة الشنيعة مثار لغز بين الناس، فقد كثرت الأقاويل وانتشرت الشائعات، وأصبح هذا الموقف الحساس يتطلب وضع حد فاصل، فقرر أبوها أن يواجهها ويعرف منها الحقيقة، فقال لها: يا بنية، إن الناس قد أكثروا فيك الكلام، ولاكت ألسنتهم الشائعات، فقولي الحقيقة، فإن كان الرجل صادقًا فيما اتهمك به دسست عليه من يقتله، وبذلك نقطع ألسنة السوء، وإن كان كاذبا حاكمته على رءوس الأشهاد.

فردت عليه هند قائلة: لا والله ما هو بصادق، بل هو مفتر أثيم.

وحين سمع الرجل هذا الكلام من ابنته، وتبين صدقها، استراح واطمأن قلبه، ثم ذهب إلى الفاكهة وقال له: يا فاكهة، لقد رميت ابنتي بأمر عظيم، فهيا بنا إلى كهان

اليمن، يحكمون بيني وبينك، وكان العرب في الجاهلية كلما استعصى عليهم أمرا لجئوا إلى الكهان والمنجمين.

وهكذا خرج كل من الفاكهة وعتبة إلى اليمن، وفي صحبة كل منهم مجموعة من الأفراد رجالا ونساء، كشهود على التحكيم، لكن هند حاولت التملص من الذهاب معهم، فلما شد عليها أبوها قالت له: يا أبت كيف تريدني أن أضع مصيري بين يدي بشر يخطئ ويصيب؟

فقال لها: أدخلك عليه قبل أن أختبره، عندها وافقت هند على الخروج معهم، فلما وصل الجمع إلى مكان الكاهن، لم يرض عتبة أن يعرض عليه المسألة قبل أن يختبره، فلما تبين قدرته استبشر خيرا، وأدخل هند وبقية النساء إلى مجلس الكاهن، فلما رآها تقدم منها، وقال لها: انهضي غير رسحاء ولا زانية، ولتلدن ملكًا يقال له معاوية.

فلما قال ذلك عرف الفاكهة خطأه، وندم عليه، ونهض ليأخذ بيد هند، فقالت له: إليك عني، فوالله لأحرص أن يكون ابني الملك من غيرك.

وكان هذا التحكيم نهاية علاقتها مع الفاكهة، فطلقت منه ثم تزوجت بعده أبا سفيان، ليصبح هذا الزواج بداية لحياة مليئة بالأحداث الدرامية.

بدأت هذه الأحداث مع أول موقعة بين المسلمين والمشركين، وهي موقعة "بدر" التي انتصر فيها المسلمين، وهنا ينتظر هند خبر فظيع، فقد قتل أبوها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة، وأطاح سيف حمزة بن عبد المطلب برأسيهما، كما أطاح سيف علي بن أبي طالب برأس أخيها الوليد بن عتبة.

وفجعت هند في الأب والأخ والعم في وقت واحد.

فأخذت تنوح عليهم، وأقسمت على زوجها أبي سفيان: ألا يقربها حتى يأخذ بالثأر من قاتليهم.

ثم راحت ترثيهم وتبكي عليهم، بل إنها حين وصلت لمسامعها قصائد الخنساء التي ترثي فيها أخويها، قالت: أنا أعظم من الخنساء مصيبة، ثم أمرت أن يأتوا بهودج، فاعتلته وتوجهت إلى سوق عكاظ، فالتقت بالخنساء وتعارفتا، وراحت كل واحدة منهما تتحدث عن مصيبتها في فقد الأحبة، وهي تذرف الدمع، فقالت الخنساء:

أبكي أبي عمرا بعين غزيرة

قليل إذا نام الخلي هجودها

وصنوي لا أنسي معاوية الذي

له من سراة الحرتين وفودها

وصخرا ومن ذا مثل صخر إذا عدا

بملهبة الأبطال قبا يقودها

فذلك يا هند الرزية فاعلمي

ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها:

أبكي عميد الأبطحين كليهما

وحاميها من كل باغ يريدها

أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي

وشيبة والحامي الذمار وليدها

أولئك آل المجد من آل غالب

وفي العز منها حين ينمي عديدها

منذ مقتل عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، بدأت هند وأبو سفيان في تحريض الناس ضد المسلمين، وتأجيج نار

الحقد والعداوة، وأخذا يجمعان الرجال لتكوين جيش قوي يتصدى للمسلمين وينتقم منهم، حتى اجتمع أبو سفيان في مكة مع ثلاثة آلاف مقاتل، تولى بنفسه قيادتهم، ومائتا فارس قادهم خالد بن الوليد، وتوجهت الحملة نحو المدينة، والتحمت مع جيوش المسلمين في موقعة "أحد" الشهيرة، وقبل الموقعة اتفقت هند مع عبدها الحبشي "وحش" على أن يجيء لها برأس حمزة بن عبد المطلب مقابل منح حريته، فاندفع "وحش" بين الصفوف يتحين الفرصة لتنفيذ خطته، وإذا بحربته تستقر طعنة دامية قاتلة في صدر حمزة، فخر صريعا.

اصطحبت هند مجموعة النساء، وشقت طريقها بين جثث القتلى، حتى وصلت إلى جثة حمزة، فلما تيقنت من موته أخذت تطلق صيحات الفرح بصوت هيستيري، وتتمايل غبطة، ثم استلمت خنجرها، وانقضت على جثة الشهيد تمزقها بوحشية فظيعة، فقطعت أنفه وأذنيه، وقلعت عينيه، ولم تكتف بذلك، بل زيادة في الانتقام الأسود: شقت صدره بضراوة، ثم انتزعت كبده، وأخذت تلوكه بأسنانها في شراهة

وتشف، فلما رأتها نساء المشركين تفعل ذلك انطلقن يحاكينها ويقطعن جثث المسلمين.

ومنذ ذلك اليوم الأسود سميت هند بـ" آكلة الأكباد".

ولكن الأيام لا تستقر على حال.

فها هي الأحداث تمضي، وتتغير الظروف، فلقد أعلن أبو سفيان إسلامه فجأة، وزحف المسلمون بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة، وصوت أبو سفيان يصيح بالناس قائلا: يا معشر قريش إني قد أسلمت فأسلموا.

فإن محمدا قد أتاكم بما لا قبل لكم به.

ومن دخل داره فهو آمن ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فلما رأت هند المسلمين يتوجهون نحو الكعبة، تكللهم هالة من الخشوع والإكرام، أخذت بمرآهم، وأصابتها رهبة خفية تغلغلت في كيانها.

وفي الصباح تقدمت هند من زوجها تعلن إسلامها، وتطلب منه أن يسمح لها بالمثول بين يدي محمد.

وهكذا أسلمت هند بين يدي محمد.

وقد روت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى عنها ابنها معاوية بن أبي سفيان وعائشة أم المؤمنين.

وتوفيت هند في خلافة عمر بن الخطاب، قبل أن ترى ابنها أميرا للمؤمنين.

عائشة التيمية

- <u>حفيدة أبي بكر</u>

هي عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمية، وأمها هي:

أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق.

اشتهرت بين العرب كواحدة من أندر النساء.

فقد كان حسنها وجمالها وعفتها وجرأتها آية، وقد شذت عن عادة النساء في زمانها؛ لأنها كانت لا تحتجب من الرجال.

ورغم جمالها الأخاذ، فقد اعتادت عائشة أن تجلس مع الرجال وتأذن لهم بالدخول عليها.

فقد حدث ابن إسحق عن أبيه فقال: دخلت على عائشة بنت طلحة، وكانت لا تحتجب من الرجل، تجلس وتأذن كما يأذن الرجل، فعاتبها مصعب في ذلك، فقالت: إن الله تبارك وتعالي وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس، ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره.

ويحكى أن أبا هريرة لما رآها قال: سبحان الله، كأنها من الحور العين.

ومن شهرة جمالها وفتنتها أن بعض النساء كن يدفعن مبلغا كبيرا من المال لجاريتها، حتى يتمكن من رؤيتها متجردة بلا ثياب، فقد دفعت إحدى السيدات ألفي درهم من أجل هذا الغرض، فلما حدثت الجارية عائشة بالأمر، قالت لها: أوافق فأعلميها، لكن لا تقولي لها إني عرفت بذلك.

ورغم هذا الجمال الفاتن الذي كانت عائشة تتمتع به، إلا إنها كانت شرسة الطباع، ولكن ذلك لم يؤثر على مكانتها العالية، فإن جمالها الأخاذ كان يغفر لها سوء طبعها.

تزوجت ثلاث مرات، وآخر أزواجها كان واحدا من أبناء عمومتها، يدعى عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، مكثت معه ثماني سنوات ثم مات فجأة، فحزنت عليه حزنا شديدا، وامتنعت عن الزواج من بعده، رغم كثرة خطابها.

حجت هي وسكينة بنت الحسين إلى بيت الله الحرام.

وكان الحارث بن خالد المخزومي في ذلك الوقت أميرا على مكة، وهو أحد أهم شعراء قريش الغزليين، وكان يهوى عائشة ويتمنى الزواج بها، إلا إنها استعصت عليه

بسب حبها لآخر أزواجها عمر، وتعهدها بالترمل عليه حتى آخر العمر. فأرسلت عائشة إليه رسولا من قبلها يطلب منه أن يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها، فأمر الحارث المؤذنين، فأخروا الصلاة، حتى فرغت، فأثار ذلك استياء الناس وغضبهم، فعزله عبد الملك وكتب يؤنبه فيما فعل، فقال: والله ما أهون غضبه إذا هي رضيت، ثم أنشد شعرا يقول فيه:

لم أرحب بأن سخطت ولكن
مرحبا إن رضيت عنا وأهلا
إن وجها رأيته ليلة البدر
عليه انثنى الجمال وحلا

وفى حجة أخرى، رآها عمر بن أبي ربيعة فبهت من جمالها، وانبهر لما رآها، فلما التفتت إليه عائشة وقد بدا عليه الإعجاب، والتمعت عيناه ببريق الهوى، وظل طيلة اليوم يتبعها من مكان إلى آخر، بعثت إليه بجارية تقول له: أن يتقي الله فلا يحاول النظر إليها، والسير خلفها، إلا أن عمر لم يمتنع عن ملاحقتها والتغزل في محاسنها، وكان يرد على من ينهاه بأبيات من الشعر يصف فيها جمال عائشة.

وقد عرفت عائشة بعفتها وأدبها وقوة شخصيتها، بالإضافة إلى آية جمالها، كما اشتهرت بالصلاح والتقوى، وروت عن خالتها عائشة أم المؤمنين، وروى عنها طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من الرواة، وقد قال عنها يحيى بن معين أنها ثقة حجة. كما قال أبو زرعة الدمشقي: إن الناس كانوا يتحدثون عن عائشة لفضلها وأدبها، وقد ذكرها ابن حيان في الثقاة.

وكانت عائشة بنت طلحة عالمة في أخبار العرب وأشعارها، كما كانت عالمة في النجوم والكواكب، وقد أمر لها هشام بن عبد الملك بمائة ألف درهم مكافأة، اعترافا منه بفضلها كعالمة فلكية عظيمة.

وظلت عائشة تتمتع بمزايا فضائلها، حتى توفيت عام ١٠١ هـ.

ليلة بنت سعد

- <u>حبيبة المجنون</u>

سيظل التاريخ يذكر "ليلى" كواحدة من أشهر نسـاء العرب.

فقد شاء القدر أن يتردد اسمها على كل لسـان، وأن يصل صيتها إلى كل مكان.

فقد لسبب واحد..

والمدهش أن هذا السبب شديد الغرابة:

إنه الحب.

أحبها رجل من أجمل الرجال.

فدمر هذا الحب حياته، وخلد اسم محبوبته على مـر الزمان.

إنه قيس بن الملوح، شاعر قومه، أنجب فتيان القبيلة وأعز رجالها.

كان قيس بن الملوح يتجول على ناقته مستريح البال و الخاطر، فمر بامرأة من قومه، اسـمها كريمـة، وكانـت بالمصادفة تجتمع مع مجموعة من صديقاتها من بينهن ليلى،

فأصرت كريمة على دعوته لبعض الشراب، فوافـق قـيس وانضم للمجموعة.

وهناك وقع نظره على ليلى لأول مرة.

وفجأة اخترقت سهام الحب قلبه.

نظرة، وبعدها أصبح لا يسـتطيع أن يحـول عينـه عنها، لقد ملكت فؤاده، وتمكن العشق منه، فبان الوجد عليه، رغم حرصه على أن يخفيه عن الموجودين، فأخذ يتشـاغل بالحديث مع الأخريات مظهرا اهتمامه بهن، متجاهلا ليلـى، حتى لا تكتشف أنه قد أصبح صريع هواها، فقد أبت كرامته عليه التسليم بالواقع.

أما هي فقد عرفت سره.

أنبأتها غريزتها الأنثوية بكل ما يعتمل في صدره.

لكنها آثرت أن تجاريه في لعبة التجاهل.

فراحت تدعي الاهتمام بغيره، فلما نظرت في وجـه قيس، وجدته قد امتقع لونه، وتغير، بعد أن لسعته نار الغيرة، فأنشدت هذه الأبيات:

كلانا مظهر للناس بغضا

وكل عند صاحبه مكين

تبلغنا العيون بما أردنا

وفي القلبين ثم هوى دفين

فلما سمع قيس منها هذا الشعر، وما جاء بـه مـن تصريح شهق شهقة شديدة، وخارت قواه حتى سقط مغشـيا عليه، ومنذ هذه اللحظة تمكن حب كل واحد منهما من قلـب صاحبه، حتى بلغ درجة تفوق الخيال، فلـم تنقطـع بينهمـا اللقاءات والمراسلات، وتعاهدا على الوفاء والإخلاص، فلما جاء قيس إلى أهل ليلى خاطبا فوجئ برفض أبيها القاطع له، فلقد كانت قصة حبهما قد اشتهرت بين النـاس، وصـارت أشعار قيس في ليلى على كل لسـان، ممـا سـبب لأهلهـا فضيحة، فرأى أبوها أنه لو زوجها لقيس فكأنما يؤكد عليهـا شائعات السوء، وقد حاول قيس أن يثنيه عن الرفض، بل لقد ذهبت أم قيس بنفسها وأبوه ووفد من عشـيرته يرجونـه أن يقبل فيها أي مهر يطلبه، ويرحم عذاب قيس ولوعته، فـإن صدمة حرمانه من ليلى كانت فوق احتماله، فقد انهارت قواه ومرض وكاد يهلك. لكن الأب المتعنت رفض توسلات القوم

له وأقسم ألا يزوجه إياها أبدا وقال: أأفضح نفسي وعشيرتي، وآتي ما لم يأته أحد من العرب؟

ولم يكتف بذلك، بل أسرع وزوجها برجل من قومها، فتزوجته ليلى على الرغم منها.

وبلغ قيس الخبر، فيئس من حياتـه، واشـتد عليـه المرض، فأشفق عليه القوم، ونصحوا أباه: أن يأخذه للحـج ويدعو الله عز وجل أن ينقذه مما هو فيه.

ونفذ الأب النصيحة، فأخذ قيس وتوجـه لبيـت الله الحرام، وهناك قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى.

فتعلق قيس بأستار الكعبة، وكان قد بلغ به الإعيـاء درجة قصوى، فأصبح يتحرك ويـتكلم بجهـد وصـعوبة، وصرخ:

اللهم زدني حبا لليلى، وبها كلفا، ولا تنسني ذكراهـا أبدا.

ورجع قيس من مكة، وهو أشد وجدا وأكثر شـوقًا، وكان كلما هاج به الشوق يذهب إلى ديار ليلى، وهي خاوية

من ساكنيها، فيلصق صدره بها، ويمرغ خديه فـي ترابهـا، وهو ينشد الأشعار ويبكي لوعته.

وحار أهله في أمره، فكلما عرضوا عليه من النساء من هن أجمل من ليلى، وأعز نسبا: رفض أن يتـزوج أيـا منهن، عازما على الوفاء بعهود الحب، عندئذ اجتمعت معـه بعض النساء قبيلته، يحاورنه كي يكف عن تعـذيب نفسـه، فقلن له: ما الذي يجعلك تفعل بنفسك كل هذه الآلام والأحزان من أجل ليلى، إنما هي مجرد امرأة مثل باقي النسـاء، لـو سلوتها لوجدت خيرا منها من تبادلك حبا بحـب، وتكـافؤك على حبك بفيض من سعادة وهناء فتنقذ نفسك من الهـلاك؟ فقال لهن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها، وعن كل واحدة بعدها، وعشت بـين النـاس سـويا مستريحا، فسألنه: ما الذي أعجبك فيها؟ فقال: كل شيء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبني، والله ما رأيت منها قـط إلا كان في عيني حسنًا، وبقلبي علقًا، وقد جاهدت أن أبغضـها لأي سبب فما وجدت، فقلن له: صفها لنا: فأنشد يقول:

بيضاء خالصة البياض كأنها

قمر توسط جنح ليل مبرد

موسومة بالحسن ذات حواسد

إن الجمال مظنه للحسد

وقد ظل قيس مهموما بحبه، يتلظى بنار الفراق، حتى بدا وكأنه قد فقد عقله، حيث ترك أهله وعشيرته، وهام فـي القفار، لا يستر جسده إلا ثوب متهرئ، فأيقن الناس أنه قـد اختل وأطلقوا عليه لقب "مجنون ليلى" فأسرعت أمـه علـى ليلى، وقالت لها: إن قيسا قد ذهب حبك بعقله، وترك الطعام والشراب، فاذهبي إليه، فربما لو رآك يثوب إلى رشده.

فذهبت ليلى إليه سرا وقالت له: يا قـيس إن أمـك تزعم أنك جننت من أجلي، وتركت المطعم والشراب، فـاتق الله وابق على نفسك، فبكى، ورد عليها بهذه الأبيات:

قالت جننت على أيش فقلت

الحب أعظم مما بالمجانين

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه

وإنما يصرع المجنون في الحين

فبكت ليلى معه، وظلا يتحدثان لساعات.

بعدها عادت ليلى إلى بيتها، وكانت هذه آخر مقابلـة بينهما.

وظل قيس على حاله، نادبا هائما يقول الشعر في محبوبته حارا متأججا بالمشاعر الفياضة، فتغنت العرب بأشعاره، وذاع خبره فلم يعد بين العرب من لا يعرف ليلى ومجنونها، وفجأة مات قيس في واد كثير الحجارة، فحمله أهله بين صرخات النساء حسرة عليه، وبكاه فتيان الحي الذين أفجعهم موته ونهايته المأساوية، حتى ليلى وأبوها حضرا معزيين تسبقهما دموعهما، وبينما ارتمت ليلى منهارة تحت وطأة الحزن واللوعة، قال أبوها:

لم أكن أعلم أن الأمور ستصل إلى هذا الحد، ولكنني رجل عربي أخاف من العار وقبيح الحديث، فزوجتها درءا للشبهات، ولو علمت أن في ذلك هلاكًا لما فعلت.

وبينما هم يحملون جثة قيس، وجدوا ورقة كتب فيها بعض الأبيات تعبر بكل صراحة عن رأيه في سعد الذي سبب له كل هذا الشقاء، قال فيها:

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى

شقيت ولا هنيت من عيشك الغضا

شقيت كما أشقيتني وتركتني

أهيم من الهلال لا أطعم الغمضا

وكما قال قيس الشعر في "ليلى"، قالت هي أيضا فيه الشعر، ومن ذلك الأبيات الآتيه:

لم يكن المجنون في حاله

إلا وقد كنت كما كانا

لكنه باح بسر الهوى

وإنني قد ذبت كتمانا

وظلت ليلي على حبها لقيس، حتى بعد وفاته، ولـم تكن الأيام إلا تزيدها حزنا على حزن.

ليلى الأخيلية

- أشهر الشاعرات

هي شاعرة من أشهر شاعرات العرب.

اسمها "ليلى بنت عبد الله بـن الرحـال بـن شـداد الأخيلية"، من المتقدمات في الإسلام.

كان يهواها رجل من العرب، هو "توبة بن الحميـر" وكانت هي تبادله حبا بحب، فخطبها من أبيها، فـرفض أن يزوجه بها، وزوجها رجلا آخر، لكن توبة عجز عن قهـر حبه، فظل يذهب إلى ليلى متحينًا الفرصة لرؤيتها والحـديث معها، فعاتبه أخوها على ذلك، لما يسببه مـن حـرج، فلـم يرتدع، فلما علم زوجها وكان غيورا: أقسم ليقتله لو جـاء، وليقتلن ليلى لو حذرته، فتحايلت ليلى على تحذير توبة، دون أن تحنث بالقسم، فنجا من الموت بأعجوبة.

لكنه مات مقتولا على أية حال، بعد فترة وجيزة، بيد بني عوف، فحزنت ليلى عليه حزنًا شديدا، وقالت ترثيه:

نظرت ودوني من غمامة منكب

وبطن الردى من أي نظرة ناظر

وتوبة أحيي من فتاة حيية

وأجرأ من ليث بـ"خفان" خادر

ونعم فتى الدنيا ولو كان فاجرا

ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر

وتدفق شعرها قصائد وهاجة، تتغنى بفضائل حبيبها وفجيعتها فيه.

وقد تبوأت ليلى مكانة عالية بين الشعراء العرب العظام، وصلت إليها بموهبتها الفذة وعبقريتها الواضحة، وكان سادات العرب يقدرونها وتعاملون معها بكل إجلال وتعظيم.

وجدير بالذكر أن العلماء اختلفوا فيما بينهم، فيما أيهما أشعر: ليلى، أم الخنساء؟

فقال الأصمعي: إن ليلى أشعر من الخنساء.

وقال أبو زيد: ليلى أكثر تصرفًا، وأغزر مجرى، وأقوى لفظًا.

والخنساء أذهب عمودا في الثراء.

كذلك فقد فضل العرب ليلى على بعـض الشـعراء المعاصرين لها، منهم النابغة الجعدي، والذي كانت له معهـا حكاية مشهورة...

وذلك أن رجلا من قبيلة قشير اسمه "ابن الحيا" نظم قصيدة هجا فيها النابغة الجعدي وسب أحواله، بسبب نـزاع كان بين قشير وبني جعدة، فأجاب النابغة على هذا الهجـاء بقصيدة مشهورة، عنوانها "الفاضحة" ذكر فيها مساوئ قشير وعقيل وذمهم بشكل لاذع وعنيف، ثم أخذ يذكر مآثر قومه، مفاخرا بصفاتهم وأياديهم، وهنا تدخلت ليلى في الموضـوع، حيث ألقت بعض الأبيات الشعرية معلنة عن رأيها في الأمر، وهو ما لم يرق للنابغة فرد عليها يعلن عن غضـبه شـعرا، فلما عرفت ليلى أنه هجاها: ردت عليـه بقصـيدة طويلـة، حسمت بها هذه المعركة الشعرية لصالحها، فقـد انتصـرت عليه وغلبته، ولم يعد هناك كلام يقـال بعـد هـذا الشـعر الموجع، والكلام الفاضح الذي وجهته ليلى إلى النابغة، حتى قرر هو وقومه الاحتكام إلى أمير المؤمنين، حتى تكف ليلى عن التعريض له، والتشهير به هو وأهله بشعرها.

ويحكى أيضا، أنها ذات مرة قالت الشعر في الحجاج تعظه، فأمر بقطع لسانها، ثم عاد وعدل عن ذلك.

وكانت تعبر بشعرها عن عواطفها ومشاعرها في كل المواقف التي تمر في حياتها، فقالت في عثمان بن عفان:

أبعد عثمان ترجو الخير أمته
وكان آمن يمشي على ساق
خليفة الله أعطاهم وخولهم
ما كان من ذهب جم وأوراق
فلا تكذب بوعد الله وارض به
ولا توكل على شيء بإشفاق
ولا تقولن لشيء سوف أفعله
قد قدر الله ما كان امرئ لاق

وفي يوم اجتمعت مع معاوية بن أبي سفيان، فسـألها عن توبة بن الحمير..

فقال: ويحك يا ليلى، أكما يقول الناس كان توبة؟

قالت: يا أمير المؤمنين كان سـبط البنـان، حديـد اللسان، شجا للأقران، كريم المختبر، عفيف المنذر، جميـل

المنظر، وهو يا أمير المؤمنين كما قلت له. قال: وما قلـت له؟ قالت:

حماهم بنصل السيف من كل قادح

يخافونه حتى تموت خصائله

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قفره

ألد ملد يغلب الحق باطله

إذا حل ركب في ذراه وظله

ليمنعهم مما تخاف نوازله

حماهم بنصل السيف من كل قادح

يخافونه حتى تموت خصائله

فأمر لها معاوية بجائزة عظيمة، بعد أن استمع منها لعدد من القصائد.

وهناك واقعة غريبة في حياة ليلـى، يحكيهـا أبـو الخصيب، ففي أحد الأيام، كانت ليلى مقبلة من السفر، فمرت على قبر توبة وكان معها زوجها، فأوقفت هودجهـا علـى مقربة من القبر، وقالت لزوجها: والله ما أبرح حتـى أسـلم عليه، فرفض زوجها، وحاول أن يرغمهـا علـى معـاودة

السفر، إلا أنها تشبثت برأيها، فاضطر أخيرا علـى إجابـة طلبها.

فذهبت ليلى ووقفت أمام قبر توبة، وقالت: السـلام عليك يا توبة، ثم سكتت عدة دقائق، بعدها تحولت إلى رفاقها الذين اصطحبوها، وقالت لهم: إنها المرة الأولى التي يكـذب فيها علي فسألوها مندهشين: كيف؟ ردت عليهم: أليس هـو الذي قال:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
علي، ودوني تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقي
إليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل ما قرت به العين صالح

فما باله لم يسلم علي كما قال!!

ثم ذهبت ليلى إلى هودجها، وركبته، وكانـت إلـى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت اهتزاز الهودج فزعـت، فطارت في وجه الجمل، حتى نفر ورمى بحمله، فوقعت ليلى على رأسها، وماتت من فورها، ودفنت بجانب توبة.

هجيمة الدمشقية

- العالمة الجليلة

عالمة جليلة، اشتهرت بأنها واسعة الاطلاع، وفقيهة كبيرة كانت متقدة الذكاء ملمة بالعلوم، متعمقة فـي الثقافـة والمعرفة، بالإضافة إلى أنها كانت زاهدة متقشفة رغم شـدة جمالها وحسنها، اسمها" هجيمـة بنـت حيـي الأوصـابية الدمشقية" ولقبت بـ "أم الدرداء".

كان مجلسها يضم أبـرز العلمـاء والفقهـاء فـي عصرها.

وقد روت الأحاديث عن أبـي الـدرداء، وسـلمان الفارسي، وفضالة بن عبيد، وأبي هريرة، وكعب بن عاصـم الأشعري، وعائشة أم المؤمنين.

كما روى عنها جبير بن نفير، وابن أخيها مهدي بن عبد الرحمن، وأبو عمر عمران الأنصاري، وسالم بن أبـي الجعد، وزيد بن أسلم، وعثمان بن حيان الدمشقي، وعطـاء الكيخاراني، ويونس بن ميسرة، ومرزوق التيمي، ومكحـول الشامي، والأزهر بن الوليد الحمصي، وغيرهم.

كما روى لها مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

وقد حظيت بمكانة عالية بين أهـل الثقـة، فكانـت أحاديثها وآراؤها موقع تقدير وتميز من علماء عصرها.

وكان الناس يقصدونها ليستمعوا إليها، تحـدثهم فـي شئون الدين والدنيا، فينهلون من علمها الغزير، ويفيدون من حكمتها الصائبة.

وقد قال عون بن عبد الله: كنا نجلس إلى أم الدرداء فنذكر الله عندها، فقال الجمع لها: لعلنا قد أمللنـاك؟ فـردت عليهم: تزعمون أنكم أمللتموني، فقد طلبت العبادة فـي كـل شيء، فما وجدت شيئًا أشفى لصدري، ولا أحرى من مجالس الذكر، ثم قالت: أفضل العلـم المعرفـة، فتعلمـوا الحكمـة صغارا، تعملوا بها كبارا، فإن كل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر. ثم استأنفت كلامها قائلة: ما بال أحدكم يقـول: اللهم ارزقني وهو يعلم أن الله لا يمطر عليه مـن السـماء دينارا ولا درهما، وإنما يرزق بعضكم مـن بعـض، فمـن أعطى شيئًا فليقبله، فإن كان غنيا فليطعمه للمحتاج، وإن كان فقيرا فليستعن به، ولا يرد على الله رزقه الذي رزقه، ولذكر الله أكبر، وليس هناك أفضل من التسبيح لله.

وقال لها رجل من الحضور: إني أجد في قلبـي داء لا أجد له دواء. أجد القسوة شديدة لا حيلة لي فيها، فقلت له: اذهب إلى القبور واشهد الموتى.. وتفكر، إنك لآت إليهم في يوم من الأيام، فإن حياتك مهما طالت قصيرة، إنما الوجـل في قلب ابن آدم كاختراق السعفة ليس لها قشعريرة.

وقد كان لأم الدرداء مكانة عظيمة عند بنـي أميـة، يجلونها ويوقرونها لفضلها ورفعة قدرها بين أهـل العلـم، فكانت تقيم ستة أشهر في بيت المقدس، وستة أشهر بدمشق، وكان عبد الملك بن مروان كثيرا ما يجلس معها في حلقتها، في مؤخرة مسجد دمشق، يستمع إلى حـديثها ومواعظهـا، أو يبعث إليها فتأتيه وتنزل في ضيافته بعض الوقت.

ويحكى أنه في ليلة، وكانت مقيمة عند عبد الملـك، قام من نومه ليلا، فصاح يدعو خادمه، فلما أبطأ عليه، أخـذ يسبه ويلعنه، وفي الصباح فوجئ بأم الدرداء تـدخل عليـه معاتبة، وقالت: سمعتك الليلة تلعن خادمك.

فرد عليها: لما أبطأ عني استفزني، فغضبت ولعنته.

فقالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يكون اللعانون شفعا ولا شهدا يوم القيامة".

ويذكر أنه لما توفي زوجها، خطبها معاوية بن أبـي سفيان، لكنها ردت خطبته، وقالت: والله لا أتزوج في الدنيا، حتى أتزوج أبا الدرداء إن شاء الله في الجنة.

وتوفيت حوالي عام ٨١ هـ.

سلامة القس

- <u>وأغنية الوداع</u>

قال عنها المدائني: كانت سلامة مغنية حاذقة، جميلة، ظريفة، شاعرة، ما رأيت خصالا أربع اجتمعن فـي امـرأة مثلها: حسن وجهها، وحسن غنائها، وحسن عزفها، وحسـن شعرها، وسلامة واحدة من أشـهر المغنيـات اللاتـي ذاع صيتهن عبر الزمان، ولدت في المدينـة، وتعلمـت الغنـاء والعزف من أساتذة عصرها، فبرعت فيهما، حتـى أصـبح يضرب بها المثل، وكان صوتها عذبا شجيا يخلب الألبـاب، في يوم من الأيام سمعها عبد الرحمن بن أبي عماد الجمشي ـ قارئ القرن ـ وكان أشهر قـراء مكـة، والـذي لقـب بـ" القس" لكثرة عبادته وشدة ورعه، كان صـوتها ينسـاب رخيما، نافذا للقلب وهي تغني لحنا رقيقًا فتأثر القـس مـن غنائها الذي اخترقه دون إرادة منه، فلقد أمضى حياته عازفا عن الغناء والطرب، لما يجد فيهما من التلهي عن ذكـر الله، ولكن الأقدار شاءت أن يصك سمعه، دون أن يتعمـد، هـذا الصوت الذي شل حركته، فظل ساكنا يستمع حتـى فرغـت

سلامة من أغنيتها بعد أن أذابت قلبه وجدا، ولما رأى صاحب الدار تغير هيئة القس وتأثره بغناء سلامة، أمر فحضرت مجلسهما، ورآها القس، فعرف أنه قد وقع في الحب، كانت تتراءى أمامه جميلة، رقيقة، حلوة الشمائل، بالغة الحسن، أما هي فقد بهرها زهده وتقواه، وكان ذا شهرة فسمعت عنه قبل أن تلقاه، فلما رأته ملكها حضوره القوي، وفيض نقائه الذي يسطع في عينيه طهرا وعذوبة، أسرها بخلقه القويم وحسن شمائله، فمال كل منهما للآخر، والحب تفضحه عيونه، كما قال أحمد رامي، لذلك لم يعد بينهما احتمال، وذاع الخبر، تناقلته الألسنة من دار إلى دار، فأصبح حديث المدية: "القس الزاهد العابد العارف بالله يعشق ويحب المغنية الحسناء" وأخذ الخيال ينسج قصصا مبتذلة يلصقها بأبطال القصة، فادعوا أن القس قد هوى في درج الخطيئة، وأنه قد شغله الغرام عن دين الله وتعاليمه، وغير ذلك من الافتراءات والأكاذيب، لكن الحقيقة أن الحب الطاهر الشريف ليس خطيئة، وأن عبادة الله لا تمنع الإنسان أن يمارس إنسانيته: بتبادل المشاعر الرقيقة التي تطهر القلوب وتسمو بالروح، هكذا كان القس يدافع عن قضيته، وعن حبه، كان

لا يرى في حبيبته إلا روحا نقية وقلبا طاهرا، وكان يجاهد نفسه ضد غرائزه، ولا يستبيح أن تقهره الشهوات، فظل حبه عنيفا وظل هو على عهد النقاء.

وفي أحد الأيام، قالت له سلامة وقد غلبها الهيام: أنا والله أحبك.

قال: وأنا والله أحبك. قالت: أريد أن أضع فمي على فمك. فقال: وأنا والله أحب ذلك. قالت: فما يمنعك؟ قال: إن الله عز وجل يقول "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين" وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تئول إلى عداوة، ثم قام وانصرف مسرعا هاربا من ضعفه، أو هاربا من الشيطان، وانغمس في ذكر الله والصلاة والصوم، مستعينًا بهم على نفسه، ومستعيدا زهده ونسكه، لكن الأيام كانت تخبئ مفاجأة، حيث فرقت شمل الحبيبين، فقد وصلت شهرة سلامة إلى يزيد بن عبد الملك خليفة المسلمين، فقرر أن يشتريها، ويضمها إلى قصره كي يتمتع بفنها البديع، فقد كان يردد قائلا "لا يقر عيني ما حصلت عليه بتوليتي الخلافة حتى أشتري سلامة وحبابة" وقد دفع يزيد بن عبد الملك عشرين ألف دينار ثمنًا لسلامة، بخلاف الثياب والحلي

والطيب والأصباغ التي جاءت بها الرسـل محملـة علـى الركائب هدية لها، وحانت ساعة الرحيل، غنت سلامة أغنية الوداع لحبها الميئوس منه، وللأماكن التـي شـهدت أحلـى لحظات حياتها، وبلغت شدة انفعالها بالغناء: أنها لما فرغـت راحت في غيبوبة بعض الوقت، ولما فاقت وجدت أن الناس قد التفوا حولها: يبكون وينتحبون تأثرا من غنائها، ولوعـة من فراقها وحرمانهم من هذا الصوت الساحر!

رابعة العدوية

- <u>شهيدة العشق الإلهي</u>

تعتبر أم الخير بنت إسماعيل المعروفة بـ "رابعة العدوية" من أشهر الصوفيين في الإسلام، تفردت بمكانة سامية لم يصل إليها أحد، فكانت "إمامة" يستفتها كبار المتصوفين، بل ويتبارك بها البسطاء والمحتاجون كواحدة من أزهد الزهاد.

أفنت حياتها في العبادة والتقوى، وإصلاح النفس وكبح جماح الشهوات، وآثرت أن تضحي بكل شيء دنيوي ثمنًا لارتواء الروح بما وراء اللذة الحسية، فعاشت فقيرة معوزة متقشفة، وانعزلت عن ضجيج الحياة الصاخبة، إلا من مجالس العلم وصحبة الفقهاء العالمين أمثال: حسن البصري التقي الشهير، وشفيق البلخي الصوفى العظيم، وسفيان الثوري المجتهد الكبير، والملك دينار حاكم الكرخ والشاعر البليغ، وذو النون المصري.

كل هؤلاء الأفاضل العظام حضروا مجالسها، ونهلوا من فيض مباحثها ومعارفها في الدين والعلم، فلم يزدهم ذلك إلا تقديرا لها، وتعظيما لزهدها وتقواها وصلاح دينها.

كان أبوها من موالي آل عتيك.. ولدت في البصرة في أوائل العصر الهجري، ومات أبوها وهي لم تزل في مقتبل العمر.

وكانت أمها قد ماتت قبله بفترة وجيزة، فتمزق شمل الأسرة التي كانت رابعة تضمهم مع أخواتها الثلاث الأخريات، وذات يوم بينما كانت ذاهبة لقضاء حاجة عثر عليها أحد اللصوص فسرقها، وباعها بستة دراهم إلى رجل عملت في بيته كخادمة، وكان هذه الرجل قاسيا مجردا من العطف والإنسانية، أثقل كاهلها بكل الأعمال الشاقة، فكانت رابعة تعيش في البيت ذليلة شقية، لا يكاد يستر جسدها سوى ثوب مهلهل، ولا تنال من الطعام إلا أردأه والذي لا يكفي لإطعام عصفور، حتى النوم لم تكن تهنأ به، حيث كان عليها أن تعمل يوميا من قبل طلوع الشمس حتى ساعات متأخرة من الليل.

وظلت رابعة على هذه الحال، تذوي يوما بعد يوم، وهى صابرة محتملة، إلى أن حدث لها موقف غريب.

فقد خرجت لشراء شيء للبيت، فرآها رجل، وأخذ يتبعها إلى السوق، فخافت منه، وراحت تتلمس طريقا للهروب وهي تهرول مسرعة، فزلت قدمها وسقطت على الأرض، وانكسر ذراعها، ولم تقو على النهوض من شدة الألم.

حينئذ رفعت نظرها خاشعة إلى السماء تناجي الله عز وجل قائلة "رباه" قد انكسرت ذراعي، وأنا أعاني الألم وقبله اليتم، وسوف أتحمل كل ذلك وأصبر عليه، ولكن عذابا أشد من هذا العذاب يؤلم روحي، ويفك أوصال الصبر في قلبي ونفسي من ريب يدور في خلدي، فهل أنت راض عني يا إلهي، هذا ما أتوق إلى معرفته".

ما كادت رابعة تفرغ من نجواها، حتى أتاها هاتف يثلج قلبها، وصوت يقول لها: لك عند الله يا رابعة مرتبة تغبطك الملائكة من أجلها.

فنسيت رابعة آلامها، وعادت إلى دار سيدها آمنة مطمئنة.

ومن يومها أخذت تكثر من صلاتها وقيام الليل، وتؤدي أعمالها وهي صائمة.

وذات ليلة فزع سيدها من نومه على صوت يرن في أرجاء البيت، فخرج من غرفته يستجلي الأمر فقادته قدماه إلى غرفة رابعة، حيث رأى ما أدهشه وحير عقله.

رأى رابعة تصلي بخشوع، وهالة من النور تحيط برأسها وهي تناجي ربها قائلة: ربي إنك تعلم أن أشد ما أتوق إليه هو عبادتك، وتأدية ما لك من حقوق، ولكني أثيرة لا أملك حريتي، فاعذرني يا إلهي إذا عجزت عن تحقيق ذلك دون إرادتي.

فبهت سيدها من هذا المنظر العجيب، وفي اليوم التالي استدعاها وقال لها: أنت حرة طليقة يا رابعة ولك الخيار أن تمكثي هنا، أو تذهبي إلى حيث تشائين.

فاختارت رابعة أن تترك بيت سيدها، فودعته وانطلقت تخلو بنفسها، وانقطعت للعبادة كما كانت ترجو.

وعرف عن رابعة: أنها كانت تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر غفت قليلا، ثم ما تلبث أن تنهض فزعة تؤنب نفسها على هذه الهنيهات التي استسلمت فيها للنوم.

وقيل إن رابعة كانت تصلي كل يوم ألف ركعة.

وقيل أيضا إنها لم تكن ترد سائلا يأتيها، فكانت تعطي للسائل كل ما تملكه.

وذات مرة دخل حجرتها لص وهي نائمة، فحمل الثياب وكل ما وجد من متاع، وجاء يخرج فلم يجد الباب، فوضع ما يحمله من مسروقات فإذا به يجد الباب، فعاد وحمل المسروقات فاختفي الباب، وهكذا تكرر الأمر حتى سمع هاتفًا يقول له: دع الثياب فنحن لها حافظون وإن كانت نائمة.

وسئلت مرة: متى يكون العبد راضيا؟ فقالت: إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة.

وسئلت مرة أخرى: ما حقيقة إيمانك؟

فأجابت: ما عبدت الله خوفًا من ناره، ولا حبا لجنته، فأكون كالأجير السيئ، وإنما عبدته حبا وشوقًا إليه.

مرضت ذات يوم، فلما ذهب حسن البصري للاطمئنان عليها، فوجئ بوجود رجل أمام بابها يبكي، فسأله مندهشًا: ما الذي يبكيك؟ فأجاب الرجل: أحضرت كيسا من الذهب لرابعة، لا أدري هل تقبله أم ترفضه، فأرجوك أن

تدخل معي وتقنعها بقبوله، فلما حدثها حسن البصري في هذا الموضوع، قالت: تعلم يا حسن أن الله يرزق حتى عباده الذين هم عنه لاهون، لكني لم أتوجه لغير الله منذ اليوم الذي أدركت فيه قدرته الإلهية، فكيف أستطيع أن أقبل هدية هذا التاجر، وأنا لا أعلم هل اكتسب ماله من حلال أم حرام؟

وهناك حادثة مشهورة عن رابعة، فقد زارها يوما أحد التجار، فوجد دارها مخربة مدمرة تحتاج إلى إصلاح وتعمير، فعرض عليها أن تنتقل إلى إحدى دوره مؤقتًا إلى أن يتم إصلاح البيت، فقبلت رابعة وانتقلت إلى الدار الجديدة التي كانت دارا مرفهة: تزين جدرانها الزخارف، وتمتلئ حجراتها بالأمتعة الناعمة ومظاهر الثراء والنعيم، ولما كانت عين رابعة لم تتعود أن تقع على هذه الأشياء: نظرا لعيشتها الزاهدة المتقشفة، فقد أطالت النظر في الجدران المزينة بالأشكال المبهجة والزخارف، فلما وجدت نفسها سارحة بين الألوان، أخذت تؤنب نفسها، ثم خرجت على الفور من هذه الدار، وأقسمت ألا تعود إليها حتى لا يشغلها شيء عن العبادة.

وقد كانت رابعة ـ رضي الله عنها ـ كثيرة البكاء من خشية الله وكانت إذا سمعت ذكر النار تصاب بالإغماء.

وقد عرف عنها أنها صاحبة كرامات، ومن أولياء الله الصالحين، وقيل يوما إنها انتوت أن تحج بيت الله، وعندما همت بالذهاب: رأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء، فقالت رابعة: لا أريد الكعبة، ولكن: رب الكعبة.

ويروى أيضا أنها كانت يوما في دارها تتعبد، وجاءها صالحان يزورانها، ولم يكن لديها سوى رغيفين، فعندما همت بتقديم الرغيفين لهما، إذا بالباب سائل يطرقه، فأعطته الرغيفين، ثم قالت: يا رب! أنت قلت الحسنة بعشرة أمثالها، وأنا من أجلك أعطيت الرغيفين، فاعطني حتى أكرم ضيفي.

ولم تكد رابعة تنهي كلامها حتى طرق الباب، وإذا بخادمة تعطيها صرة، فلما فتحتها وجدت بها عشرين رغيفا.

ويروى الثقاة عن رابعة: أنها رأت الرسول عليه الصلاة والسلام يسلم عليها وسألها: يا رابعة، هل تحبينني؟ فأجابت مستفهمة: وهل هناك من لا يحبك؟ إنما حبي لك قد ملأ قلبي، فليس فيه مكان لأن أحب غيرك.

وسئلت يوما: هل تحبين الله كثيرا؟ فقالت: بلا ريب، فقيل لها: وهل تعدين الشيطان عدوا لك؟ فأجابت: إن محبة الله قد ملأت أرجاء قلبي، حتى لم يعد فيه متسع لعداوة الشيطان.

وكانت تناجي الله عز وجل بهذه الكلمات:

إلهي أحبك لوجهين: لحبي وهيامي لك، ولأنك أهل للمحبة والعبادة، فباشتياقي ومحبتي أذكر اسمك، وأشغل بذاتك العلية، وبأهليتك للمحبة أنال من لدنك مرتبة المشاهدة، فلا يقف حمدك وثناءك لأمر منهما، وإنما لك الشكر ومنك الفضل للحالين.

ومن بين دعواتها دعاء اعتادت أن ترردده في الليل، وفيه تقول:

إلهي! أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الأبواب، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك.

ومن دعائها أيضا: إلهي، إذا كنت أعبدك خوفًا من نارك فاحرقني بها، وإذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك.

واشتهرت رابعة بأقوالها في محبة الله، فكانت تنشد الشعر معبرة عن فيض مشاعرها وقوة وجدها، ومن ذلك قولها:

وإني جعلتك في الفؤاد محدثي
وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وأنشدت في أبيات أخرى، تعبر عن منتهى أملها في الوصل وانقطاعها عن الوجود، بعد أن أصبحت كلها له، فأنشدت تقول:

أحبك حبين: حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى
فذكر شغلت به عن سواك
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك للحجب حتى أراك
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وقد تفردت رابعة في محبتها للخالق عز وجل، وأصبحت رائدة لمذهب العشق الإلهي، الذي انتهجه بعدها عدد من الصوفيين الزهاد، ولكن بإجماع الآراء فإن أحدا لم يبلغ ما بلغته رابعة في العشق الإلهي، حتى أن ابن الفارض المتوفى بعدها بعدة قرون (عام ٦٣٢ هجري) والملقب بشيخ العشاق المصري الذي عاصر رابعة، وهو المتصوف الخاشع الزاهد، كان من أوائل المتأثرين بمذهب رابعة، فكان يأخذ عنها الأحاديث ويستمع إليها: وهي تناجي ربها، وتنشد الأشعار فيه. وإذا كان ذو النون من أوائل من شكلوا فكرة الصوفية وأول من وضع تعريفات للوجد والسماع، فإن رابعة هي إمامة العاشقين في الإسلام.

وقد جعل الناس من بيت رابعة مزارا مباركًا، فكانوا يتوافدون إليها، فينهلون من حكمتها، أو تفيض عليهم كراماتها، أما أهل العلم والمعرفة من الزهاد والمتفقهين فقد كانوا لا ينقطعون عنها.

وصفها مرة سفيان الثوري، العالم الورع الفقيه الذي أطلق عليه لقب "أمير المؤمنين في الحديث" فقال: هي المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها. ويحكى أنه

كان يوما عندها فأخذا يصليان حتى انبلج الفجر، وفي الصباح وجدها تدعوه لصيام اليوم، شكرا لله على ما هيأ لهما من الصلوات.

أما حسن البصري الفقيه الثقة الناسك، صاحب المواعظ المشهورة وأول من وضع أصول علم التصوف، فقد ذهب إليها يوما بعد صلاة الظهر، فأخذا يتحدثان عن المعرفة بالله، وكانت قد وضعت على النار قدرا فيه شيء من اللحم، لكن الحديث عن الله شغلهما عن متابعة النار وطهي اللحم، ثم جاءت صلاة المغرب وبعدها العشاء، فأخذا يصليان ويتعبدان، فلما فرغا، تذكرت رابعة ما في القدر من اللحم، فأتت به إلى حيث كان اللحم قد طهي بقدرة الله فأكلاه، وقال الحسن: فأكلات، وكان للأكل طعم لم أتذوق مثله قط.

وهناك قصة أخرى تقول: إن رابعة صعدت جبلا، فأقبلت الغزلان تطوف بها وتستأنس، ثم جاء الحسن البصري، فما إن رأته الغزلان حتى فرت هاربة، فقال لها: يا رابعة، أرى الغزلان فرت لما رأتني ولم تفر منك. فسألته رابعة عما تناول من طعام قبل حضوره، فأجاب أنه تناول

طعاما بالزيت. فقالت رابعة: وكيف تريد منها إذن أن لا تفر منك وأنت تأكل من دهنها؟

ويروى أن الحسن البصري توجه مع بعض أصحابه إلى رابعة وكان الوقت ليلا، فاحتاجوا إلى مصباح، وعندئذ وضعت رابعة إصبعها في فمها ثم أخرجته فظل يضيء لهم مثل النور حتى مطلع الفجر.

ويحكى أن رجلا جاء رابعة فسألها: إني أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو تبت، هل يتوب الله علي؟ فقالت: لا، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروى أن مالك بن دينار المتقشف الزاهد المعروف أنه قال: ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة، وقد فرشت على الأرض حصيرة قديمة بالية، ومخدتها من الطوب، فقلت لها وقلبي يبكي ألما من حالها: يا رابعة، إن لي أصدقاء أغنياء فإن سمحت سألتهم أن يعطوني شيئًا من أجلك. فأجابت: لقد أسأت القول يا مالك، إن الله تعالى هو الرزاق، أفمن يرزق الأغنياء ولا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه المشيئة، فنحن نرضى عنها كل الرضا.

ولقد ملكت رابعة قلوب زهاد عصرها، فكانوا يولعون بوعظها ودعائها، ويتزودون بمعارفها وتسطع عليهم أنوار محبتها الإلهية.

وهناك العديد من الروايات التي تتحدث عن الإمكانيات الخارقة، التي وهبها الله القادر على كل شيء لهذه العابدة الناسكة، منها هذه القصة العجيبة، فقد روي أن رابعة ذهبت إلى الحج مع جمع من الناس، وفي أثناء الطريق نفق حمارها ومات، فتطوع من كان معها أن يحملوها معهم على دوابهم، ولكن رابعة أبت، وقالت لهم: إنها لما نوت أن تحج، لم يكن اعتمادها عليهم، بل على الله. فرحلوا وتركوها في مكانها. فقالت تناجي ربها: أهكذا يفعل الملوك بالمستضعفين من عبيدهم؟ ثم أخذت تفند له حالها وترجوه أن يبت في أمرها، فما كادت تنتهي من كلامها حتى نهض الحمار حيا يسعى، فركبته وسارت في طريقها تلحق بالقافلة.

ورغم ما تمتعت به رابعة من كرامات وخوارق، ورغم درجتها العالية في الوصال، إلا أن ذلك لم يشغلها أبدا عن العبادة والاجتهاد ونبذ الحياة الدنيوية.

ولما أحست رابعة بدنو أجلها: نادت خادمتها "عبدة" وقالت لها: يا عبدة لا تخبري أحدا بموتي، وكفنيني في جبتي هذه. فلما ماتت فعلت عبدة ما أمرتها به.

وماتت رابعة وعمرها يتعدى الثمانين، وأصبح قبرها مزارا يقصده الناس يتلمسون بعضا من الكرامات والخوارق.

وتحكي عبدة خادمتها، التي قيل عنها إنها من خير إماء الله وكانت متعبدة خاشعة: رأيت رابعة بعد موتها بحوالي سنة في المنام، وكانت تلبس حلة من إستبرق خضراء، وخمارا من سندس أخضر لم أر شيئا قط أحسن منه، فقلت: يا رابعة: أين هي الجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنهما والله نزعا مني، وأبدلت بهما ما ترينه علي وطويت أكفاني وختم عليها، ورفعت إلى عليين ليكمل لي ثوابها يوم القيامة. فقلت لها: لهذا كنت تعملين في الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيت من كرم الله عز وجل لأوليائه. فقلت: مريني بشيء أتقرب به إلى الله عز وجل، قالت: عليك بكثرة ذكره.

تذكر بعض الروايات أن رابعة كانت ـ قبل أن تزهد الدنيا وتتفرغ للعبادة ـ تتلهى بالمتع الرخيصة، وتتهتك

في حياتها ممتهنة الرقص والغناء تصل لياليها بالخمر والأقداح، ولكن هذه الروايات ليس لها سند حقيقي، فلقد اختلط الخيال بالواقع في قصة رابعة.

صحيح أنها امتهنت في بداية الأمر العزف على الناي، لكن كمهنة مباحة غير مبتذلة، وسببا للترزق، وعندما توغلت رابعة في طريق الزهد امتنعت عن ذلك وتفرغت نهائيا للنسك.

ومن يتأمل هذه الروايات التي تصف رابعة وقد انغمست في الشهوات الدنيوية، ترتوي من المتع المحرمة، لاهية وعابثة وأثيمة، حتى قابلها أحد النساك فأرشدها إلى طريق الله، يجدها تتماثل بشكل ملفت للأنظار مع قصة تاييس الغانية المصرية المشهورة، التي كانت أنوثتها الطاغية فتنة لكل من تقع عيناه عليها، والتي أتقنت وبرعت في فنون الغرام، حتى ركع تحت قدميها أعز الرجال، ثم أنهت حياتها في أحد الأديرة: زاهدة في كل ملذات الحياة.

ولعل تاييس كشخصية خلابة بكل ما تحمله من عمق فلسفي، هي التي أوحت إلى البعض باقتباس قصة حياتها

ومحاولة مزجها بقصة رابعة نظرا لاشتراكهما في نفس النهاية.

لكن الثابت أن رابعة لم تكن في يوم من الأيام ضالة أو خاطئة، لقد كانت رضي الله عنها مثالا نادرا للتصوف والزهد والخشوع.

قضت معظم حياتها عابدة راهبة في محراب الحب الإلهي حتى توفيت حوالي عام ١٣٥ هجري، بعد أن أفنت حياتها في التقوى وإصلاح النفس والرقي الروحي.

السيدة نفيسة

- <u>المباركة صاحبة الكرامات</u>

ولدت السيدة نفيسة رضي الله عنها في عام ١٤٥ هجري بمكة المكرمة.

ويمتد نسبها إلى بيت النبوة، فهي من سلالة سبط الرسول الإمام حسن بن علي بن أبي طالب.

تميزت بالزهد والورع والتقشف والصلاح والتقوى، انكبت على دراسة التفسير وقراءة القرآن، وظلت صائمة طيلة حياتها، لم تفطر إلا في العيدين، وحين كان يطلب منها أن ترفق بنفسها، كانت تجيب: من استقام مع الله، كان الكون بيده وفي طاعته.

وقد وهبت السيدة نفيسة نفسها للعبادة والتقرب إلى الله تعالى، وقد ذكر أنها حجت ثلاثين حجة، أدت معظمها سيرا على الأقدام.

كانت متزوجة من إسحق المؤتمن، الذي عينه المنصور العباس واليا على المدينة، وأنجبت منه: القاسم وأم كلثوم.

وفي عام ١٩٣ هجري حضرت السيدة نفيسة إلى مصر ومعها زوجها وولدها، واستقرت في الفسطاط، حيث قوبلت من أهل مصر بالترحاب والفرحة، فقد سبقتها شهرتها كواحدة من أولياء الله الصالحين المباركين.

فاستبشر الأهالي خيرا بقدومها، واعتبروها فألا طيبا وخيرا جاء لهم.

فالسيدة نفيسة لم تكن بشرا عاديا.

كانت من أولياء الله الصالحين، الذين من الله عليهم بالمواهب والقدرات الخارقة، فما إن تحل في مكان حتى تكثر فيه البركة، وكان من رضا الله عليها أنها لم تكن تلجأ إليه في مسألة من المسائل إلا وبذلها لها، فكان دعاؤها مستجابا لا يرد الله لها طلبا.

إن الملوك والحكام لم يحظوا بما حظيت به السيدة نفيسة من علو مكانة، وشهرة تخطت الحدود، وعظمة وإجلال يفوقان التصور.

كان الناس يحيطون بها كأنها هالة من النور تسطع عليهم، فتنير حياتهم وتبعث فيهم الأمل والرجاء، ولم لا؟ وهي الطاهرة الخالصة الإيمان المقربة من الله. وهل هناك

من البشر من هو أقوى سلطانًا وأكثر ملكًا وأرقى مكانًا من شخص يؤازره الله ويقف إلى جانبه؟

لقد كانت السيدة نفيسة مع الله في كل الأوقات، فكان الله معها دائما، تبوأت درجة سامية بفضل قوة إيمانها وبذلها الطاعات وعبادتها الصادقة، فأنعم الله عليها، ووضع فيها آية رحمته، فاشتهرت بمعجزتها في شفاء المرضى الميئوس من شفائهم، وفك كرب التعساء المغلوبين على أمرهم، ولم تكن ترد سائلا ولا محتاجا، ولم تكن تضيق بأصحاب الحالات المتلمسين من تقواها منفذًا لرحمة الله، فكانت تدعو لعباد الله الذين يقصدونها برجاء وأمل، فيزيح الله عنهم بلواهم، ويلبي لكل سائل حاجته.

يحكى أن جاءت فتاة يهودية مقعدة منذ سنين، بعد أن ملأها اليأس من الشفاء، وكانت قد سمعت عن كرامات السيدة نفيسة وقدرتها الخارقة، وشفائها لكثير من الحالات المستعصية، فلما جاءت إليها هذه الفتاة: أخذت ماء الوضوء ورشته على الجزء المشلول وهي تدعو الله أن يرحم الفتاة المسكينة ويمن عليها بالشفاء، فلما انتهت من رش ماء الوضوء: قامت الفتاة على قدميها، كأنها لم تكن قعيدة،

وعادت إلى بيتها سيرا على الأقدام. واشتهرت هذه القصة كواحدة من القصص الكثيرة التي تزخر بها حياة هذه العابدة الجليلة.

وقد بلغت شهرة السيدة نفيسة في هذا المجال حدا جعل الإمام الشافعي ـ وهو الفقيه العلامة العارف بالله ـ يرسل إليها المرضى من أصحابه فيعودون من عندها وقد شفوا تماما، بل إن الإمام الشافعي نفسه حين مرض أرسل إليها يطلب منها أن تدعو له بالشفاء، فلما وصلتها رسالته قالت لمن جاءوا بها: إن الشافعي سيقابل وجه ربه الكريم.

وفعلا مات الإمام الشافعي بعد أيام، وبعد أن أوصى أن تصلي عليه السيدة نفيسة.

إلى هذا الحد كانت الحجب مرفوعة أمام ناظريها.

فسبحان الله القادر على كل شيء، الذي تتخطى نعمه على المخلصين من أتباعه كل تصور، فالمدد الذي وصلها به الله كان نسجا من أعاجيب وأحداث لا يتوقعها العقل البشري.

بالرغم من هذا فلم تفتنها عظمتها، ولم يطالها الغرور فيفسد عليها ما وصلت إليه، بل ظلت طيلة حياتها آية

في التواضع والرفعة زاهدة في متاع الدنيا، باذلة نفسها لخدمة الناس وتخفيف آلامهم الجسدية والنفسية، فحين استجار بها رجل غني يشكو من ظلم حاكم المدينة واضطهاده له، وكيف أوقع رفقاء السوء بينهما العداوة، حتى أنه أصبح يخاف على نفسه من انتقام الحاكم، فحياته مهددة وأمواله مستباحة، دعت له السيدة نفيسة أن ينقذه الله من مصيره المنتظر، وأن يكف الحاكم عن أذاه ويصفح عنه، فاستجاب الله دعاءها، وأمن الرجل من شر كان يحيط به، وعاش مكرما معززا، فأهداها مائة ألف درهم اعترافا منه بجميلها، فأخذتها ووزعتها على الفقراء، وكانت لا تملك في ذلك الوقت ما يكفيها من طعام يومها.

ولكن الشهرة التي وصلت إليها السيدة نفيسة لم تكن مصدر سعادة لها!

فإن الناس تزاحموا حولها، وأصحاب الحاجات لا ينقطعون عن طلب رؤيتها والتبرك بها، وكل يوم يزيد من شهرتها يجلب لها أعدادا أكبر من مريديها، فأصبح هذا الوضع أكثر مما تحتمل، واستاءت السيدة الفاضلة، ليس تكبرا ولا مللا من مساعدة الناس، ولكن لأن كثرة هؤلاء

الزوار كانت تجور على عزلتها، وتأخذها من عبادتها التي لم تكن تنقطع، وتلهيها عن تفرغها الذي ألزمت به نفسها، لطاعة الله وذكره.

عندئذ توصلت السيدة نفيسة إلى حل ينقذها من تكالب الناس عليها، ويعيدها إلى وحدتها مع الله، وهو أن ترحل عن مصر نهائيا وتعود إلى المدينة.

لكن الناس الذين أحبوها أكثر من أي شيء في الوجود لم يسمحوا لها بذلك.

ما إن عرف المصريون بقرار السيدة نفيسة بالرحيل عن مصر، حتى خرجوا إليها جميعا، يتوسلون لها ألا تتخلى عنهم، ولقد بدا الأمر كما لو أنها مظاهرة "حب سلمية" فلم يتزحزح الناس من أمام دارها، يبكي الرجال منهم قبل النساء، يرجونها من خلال دموعهم: أن تظل معهم، وتعيش بينهم آمنين معها، مستبشرين بها.

وظل هذا الوضع قائما حتى حسمه الوالي، واستطاع إقناع السيدة نفيسة: أن تظل في مصر على أن ينظم زيارة الناس لها يومين فقط في الأسبوع، هما السبت والأربعاء، ثم نقلها إلى بيت آخر خصصه لها في درب السباع.

بعد أن قضت السيدة نفيسة في مصر سبع سنوات، هزل جسمها ومرضت، فقد كانت تصل الليل بالنهار صلاة وذكرا، وهي تبكي هلعا وخوفًا من الله عز وجل، تسقط دموعها مدرارة من فرط الخشية، رغم صلاحها وتقواها، كما كانت لا تفرط في يوم تصومه إلا مرغمة في الأعياد.

وتقول زينب بنت يحيى المتوج: خدمت عمتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت الليل، ولا أفطرت بنهار.

فلما اشتد عليها المرض، كتبت إلى زوجها إسحق أن يأتي، ثم حفرت قبرها بيدها في بيتها، وأخذت تنزل إلى هذا القبر تصلي فيه وتقرأ القرآن، حتى لقد ختمت قراءة القرآن مائة وتسعين ختمة، ومنذ أن حفرت السيدة نفيسة قبرها، وهي دائمة التعبد فيه، فكانت تذكر الله وتقرأ آياته، وهي تبكي بحرقة كبيرة، وفي ذات يوم سقطت السيدة الجليلة، وقد أوشكت أيامها أن تنقضي. ها هي تحتضر وآلامها الجسدية تنال منها، فألح عليها خلصاؤها أن تفطر حتى تستطيع مواجهة المرض ومقاومة الآلام. فردت عليهم قائلة:

واعجبا، منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه صائمة، أأفطر الآن، هذا لا يكون أبدا.

ثم قرأت سورة الأنعام، وكان الليل قد هدأ، فلما وصلت إلى قوله تعالى "لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون" راحت في غيبوبة لم تفق منها، ثم فاضت روحها وماتت في القبر الذي حفرته بيدها.

أما زوجها، فقد وصل مصر في نفس اليوم، وعندما دخل عليها كانت قد رحلت عن الدنيا، فدفنها في قبرها بعد أن منعه الأهالي من نقل جثمانها حيث أراد دفنها في المدينة، ولكن المصريون الذين تشبثوا بها حية تشبثوا بها ميتة وأصبح قبر السيدة نفيسة مقاما ومزارا حتى اليوم، يفد إليه الناس من كل مكان، ولا ينقطع عنه السائلون والمريدون منذ مجيئها عام ١٩٣ هجريا وحتى الآن.

حبابة

- وحكاية حبة الرمان

من كان يصدق أن تلقى حبابة هذا المصير؟

من يصدق أن حبة رمان صغيرة تسبب كل هذه الأحزان؟

بداية القصة كانت أيام الخلافة الأموية، فإن يزيد بن عبد الملك كان مشهورا بولعه الكبير بالغناء والطرب، حيث تميزت هذه الأيام بازدهار الفن والأدب، فكثر المغنون والمغنيات والعازفون والعازفات وأصحاب الفنون وأصبحوا من وجهاء المملكة، ندماء الملوك والأمراء، ورفقاء لأكابر الدولة، ولما تولى يزيد الخلافة سألته زوجته يوما: هل بقي من الدنيا شئ تتمناه؟ فرد عليها قائلا: حبابة.

وقد كانت حبابة في ذلك الوقت من أشهر المغنيات، هي وسلامة القس، أما سلامة فإن يزيد كان قد اشتراها بعشرين ألف دينار من قبل، وكانت حبابة قد تعلمت الغناء من سلامة وغيرها من رواد الغناء في ذلك العصر، أمثال أبي سريج وعزة الميلاء وابن محرز ومالك وجميلة، فلما

اشترى يزيد سلامة، بقيت في نفسه حسرة من أجل حبابة، فقد كان ما سمعه عن حسنها وعذب صوتها يرهف مشاعره ويثير مكامن قلبه.

ولما كانت سعدة زوجة أمير المؤمنين امرأة من طراز خاص، فإنها لما رأت تعلق الأمير بطيف حبابة، ورغبته الأكيدة في وصالها، لم تدخر وسعا في تحقيق رغبته، لذلك أرسلت سعدة رسولا من أخلص أتباعها، وزودته المال الوفير، وأمرته أن يذهب فيشتري حبابة، فلما جاء بها ونظرت سعدة إليها، هالها جمالها الساحر وسحنتها المضيئة، فقد كانت حبابة فتنة للناظرين. أخذت سعدة حبابة وزينتها وطيبتها، وألبستها ثوبا مطرزا باللآلئ والسيور الذهبية، ثم أتت بها إلى مجلس يزيد وخبأتها خلف الستارة، ثم تقدمت من يزيد، وسألته مرة أخرى: يا أمير المؤمنين أبقى شيء تتمناه في الدنيا؟ فقال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك؟ قالت: حقًا، ثم ذهبت إلى الستارة فرفعتها وقالت: يا أمير المؤمنين هذه حبابة. ثم انسحبت وتركتها بين يديه. ومنذ اللحظة الأولى اقتحمت حبابة قلب أمير المؤمنين وتربعت فيه، عشقها يزيد وتملكته روحا وجسدا وسلطت

سلطانها على عقله وكيانه، فأصبح لا يطيق البعد عنها، ولا يرى في الحياة نعيما إلا في القرب منها، فزاد نفوذ حبابة وأصبحت لها الكلمة العليا، حتى هددت بالخطر دولة المسلمين، فها هو أمير المؤمنين لاه عن ملكه، زاهد عن كل شيء سوى جاريته المحبوبة، حتى شئون الحكم تركها ونبذ مهامه السياسية وتفرغ للهوى، فلما استفحل الحال، دخل عليه أخوه مسلمة وقال له:

- يا أخي، ضيعت حوائج الناس، واحتجت عنهم، أترى هذا مستقيما لك؟

ولكن حبابة كانت أحب إليه من الجاه والسلطان، ومن الملك، ومن الناس أجمعين، بل أحب إليه من نفسه، فلم تستطع كل الوسائل أن تقلص من نفوذها عليه، كانت تأمره فيطيع، وتطلب فتتحقق في لحظة كل مطالبها مهما كانت، هي الآمرة الناهية، هي الحاكم المطلق المستبد في مملكة العشق والهيام، وهكذا غرق يزيد حتى أذنيه في بحر الغرام، وفشل الجميع في إنقاذه، وبدا كما لو كان ملكه يسير إلى حافة الهاوية، إلى أن حدث الشيء الذي قلب الأوضاع!

في يوم من الأيام خرج الخليفة من قصره ومعه حبابة، متوجهين إلى بيت منعزل في أول الشام، كي ينعما معا ببعض الخصوصية، وهناك أخذا يرتشفان كئوس الحب والغرام، بعيدا عن الرقباء وينهلان من فيض المشاعر الجياشة ومتعة الارتواء، وبينما هما في أسعد حال، وأصفى بال، بين أيديهما ألذ طعام وأهنأ شراب، وبينما هما في انسجام تام وهي تغني وهو يذوب مع صوتها الأخاذ، فجأة انقلبت الدنيا رأسا على عقب، تناولت حبابة حبة رمان، فأصابتها شرقة، وبينما كان يزيد يسارع إليها ملهوفًا ملتاعا مرتبكًا، كانت هي قد اختنقت، وفي لحظة ماتت.

وجن جنون يزيد، حبة رمان!! حبة رمان تقتل حبيبته أمام عينيه، حبة رمان تنتزع منه أغلى ما لديه؟! كانت المصيبة أكبر من احتماله، فقد أعصابه، ظل يعانق جثة حبابة وهو غير مصدق، ظل يقبلها بشكل هيستيري، وهو يرجوها أن تنهض وتكلمه، وكأنه لم يدرك أنها بالفعل ماتت.

وجاء أهله يواسونه ويصطحبونه معهم إلى القصر، لكنه أبى أن يعود، الأغرب من ذلك: أنه لم يسمح لمخلوق

بلمس جثة حبابة، ظل يزيد معها بعد موتها في نفس الغرفة التي ماتت فيها: ثلاثة أيام متوالية، ثلاثة أيام لم يكف عن معانقتها وتقبيلها والتحدث معها، والبكاء بين يديها، ويا ويل من تسول له نفسه بأن يحاول نزعها منه على اعتبار أنها ميتة! إلى هذا الحد كان يزيد يحب حبابة، وإلى هذه الدرجة انهار بعد موتها، ولكن هذا الوضع الشاذ لم يكن ليستمر، فإن مجموعة من كبراء الدولة توجهوا إليه، بعد أن علموا أن جثة حبابة كادت أن تحلل، وهو ما زال متمسكًا بها، قالوا له: إنه يعذبها وإن إكرام الميت دفنه... الخ. فاستسلم يزيد لهم، وأمر بغسل الجثة ودفنها.

العباسة أخت الرشيد

- <u>والموت في سبيل الحب</u>

أصبحت العباسة واحدة من أشهر النساء في التاريخ، لسببين رئيسيين، أولهما: استعدادها الفطري وما تميزت به من جمال ساحر وشخصية متفردة، وثانيهما: حب رجلين لها، هما أخوها أمير المؤمنين ووزيره جعفر.

لكن هذه الميزات التي نعمت بها العباسة، سرعان ما انقلبت عليها، وتآمرت للنيل منها، وأوقعتها في الهلاك!

عرفت السيدة العباسة بأنها الجوهرة المكنونة، والزمردة النفيسة.

أخت الخليفة وبنت الخلافة الذكية العالمة.

أجمل بنات المهدي، والدرة الثمينة بين درر نساء القصر الملكي، أما قصة حياتها فقد كانت أسطورة ملهمة تثير الخيال، وتسيطر على المشاعر، وتزخر بالأحداث المدهشة.

لكنها مع ذلك: انتهت نهاية مأساوية غير متوقعة!

شبت العابسة مكرمة في عائلتها الهاشمية، تذكيها صفاتها الأخاذة وشخصيتها الفريدة ذات الطبيعة الخلاقة، فمالت إلى صنوف الفن والأدب ترتوي من نبعها، ومع الأيام تألق نجمها في سماء الإبداع، وانساقت وراء ميولها حتى برعت في الأدب والبلاغة والشعر، وضمت إلى مجالسها كل الموهوبين والمحدثين، فذاعت شهرتها، وعلت مكانتها وتغنى بها الشعراء، وزاد حولها المعجبون، وأول هؤلاء المعجبين هو أمير المؤمنين ـ أخوها ـ الرشيد، فقد كانت العباسة هي الأثيرة لديه، القريبة من قلبه ووجدانه، توثقت علاقتهما وزادتها الأيام متانة، حتى لم يعد الرشيد يقوى على الافتراق عن أخته المحبوبة، كان لا يسأم من الجلوس إليها ومنادمتها بالساعات الطويلة.

ولم يصل أحد إلى مكانتها عنده إلا وزيره جعفر.

كان جعفر البرمكي أخاص خلصائه وأوفى أتباعه والأقرب إليه، كان هو والعباسة أفضل الناس عنده، لذلك لم يتردد الخليفة في الجمع بين أهم شخصيتين في حياته، في جلساته الخاصة.

فبينما كانت أشعار أخته ومآثرها الأدبية تجلب السرور.

كانت مواعظ جعفر وحكمته البليغة تثلج صدره وتملؤه بالسكينة.

وكانت العباسة بما وصلت إليه من علم ورجاحة رأي تعد من حكيمات عصرها، فكان الرشيد يثق فيها ويسعى لمشاورتها في الكثير من المسائل، كما كان الثلاثة: الرشيد والعباسة وجعفر يتواصلون بالحديث في مختلف الأمور الشيقة ويتسامرون ويحلقون في سماء الشعر والفنون، تكتنفهم السعادة وتملأ قلوبهم النشوة، فما كان أبهى هذه اللحظات وما أندر أن يجود الزمان بمثلها.

لكن العلماء وأكابر الدولة لم يعجبهم هذا الوضع.

إذ كيف يسمح أمير المؤمنين أن يجلس جعفر مع العباسة دون سند شرعي؟ وكيف تنكشف عليه، وهي ليست حلا له؟!

ولقد سعى هؤلاء القوم لإضفاء صيغة شرعية على هذه اللقاءات، والتي اعتبروها غير لائقة، منتقدين استمراء

جعفر لهذا الوضع، فأخذوا يشيرون على الخليفة بتزويج العباسة لجعفر منعا لأي سوء.

لكن الرشيد رفض الفكرة رفضا قاطعا.

إذ كيف يزوج العباسة الشريفة سليلة العائلة النبوية بنت الملوك العظام من جعفر المملوك الفارسي الذي مهما علا شأنه، فهو لا يطاول سيدة من سلالة بني هاشم.

عندئذ اجتمع العلماء يتشاورون في هذه المشكلة، فلابد من إيجاد حل آخر بعد أن رفض الخليفة فكرة الزواج، ورفض قبلها أن يضع حدا للمجالس الثلاثي!

حقًا.. كان الرشيد متشبثًا بهذا "الأنس الثلاثي" كما كان يطلق عليه.

ففيه كان ينسى همومه وضغوط الحياة المليئة بالصعاب والمعارك، وينعم بلحظات من الود الصافي والسعادة الروحية المشرقة.

لذلك سعى الفقهاء أن يجدوا مخرجا من الورطة، للتوفيق بين رغبة الخليفة من جهة وتعاليم الشريعة من جهة أخرى.

ولقد وجدوا هذا الحل في فكرة غريبة!

أجاز الفقهاء للخليفة أن يجتمع جعفر والعباسة بشرط أن يعقد عليها جعفر عقدا صوريا، أي يتزوجها على الورق فقط، حتى يصبح من حقه الجلوس معها، ويصبح محللا لها أن تكشف عليه، على ألا يلمسها ولا تكون بينهما زيجة حقيقية.

وهكذا أرضى الفقهاء كل الأطراف بهذه الفتوى.

فلقد انشرح صدر الخليفة لهذا الحل، ووجده أنسب الحلول، كي يتمتع بصحبة أحب اثنين له في الوجود.

ولكن الخليفة لم يكن يعلم أن سهام الحب قد أصابت قلب العباسة وجعفر، وأن ثمة غرام وشيك يتأجج في القلبين المحاصرين بالرفض.

لم يضع الخليفة في حسبانه احتمالات من هذا النوع!

والآن... ماذا يفعل جعفر؟!

لم يكن بيده أن يقع في هوى العباسة، لقد سلبت مشاعره رغما عنه.

كان يزداد بها تعلقًا يوما بعد يوم، فقد قهرته، واستحوذت عليه بمزاياها الروحية وفتنتها الأنثوية، فاستسلم لها واستسلمت هي أيضا، فقد كان كل منهما جديرا بالآخر،

وبعد، فإن نيران العشق التهمت كل الحواجز، قهر الحب الحكمة وطوعها لإرادته، فاستباحا أن ينعما بهدية القدر. وهناك في قصر العباسة، بعيدا عن أعين الرشيد أشبعا رغبتهما في الحب والزواج.

اعتاد جعفر الزيارات الليلية، وارتضت العباسة بالحب في الخفاء، وأخذا ينعمان بالغرام الملتهب والنشوة الثملى، حتى أثمرت هذه العلاقة عن طفل، فاضطرا أن يخفيا خبر مولد الطفل عن الرشيد حتى يتجنبا غضبه وانتقامه، فأرسلاه إلى مكة بعيدا عن أعين الرقباء وأطلقا عليه "الحسن".

في ذلك الوقت وقعت الحادثة التي فجرت المأساة!!

نشبت الثورة في أحد الأمصار، فقد خرج رجل اسمه يحيى بن عبد الله العلوي على الرشيد، وأراد أن ينفصل عن الخلافة، فوجه إليه الخليفة جيشًا بقيادة الفضل بن يحيى لإخماد ثورته، والقبض عليه، وبعد حصار شديد سعى يحيى إلى إبرام الصلح، فوافق جعفر وبعث إليه يؤمنه على حياته وماله.

ولكن الفضل تحايل بعد ذلك، حتى صحب يحيى معه ودخل به على الرشيد، وهناك أمر الرشيد بالقبض عليه وحبسه، فلما رأى يحيى المصير الذي آل إليه أرسل إلى جعفر قائلا له: "لقد كتبت لنا أمانًا فحضرنا إليك، فإذا أنت أمرت بإبقائي في السجن عرضت نفسك لقهر الله وغضبه".

فلما اضطلع جعفر على هذه الرسالة، أطلق سراح يحيى على الفور.

لكن أعداء جعفر وعلى رأسهم زبيدة زوجة الخليفة، كانوا له بالمرصاد، لذلك لم يضيعوا هذه الفرصة من أيديهم، فقد حان وقت إفشاء الأسرار، والقضاء على جعفر.

وبالفعل نقل إلى الرشيد خبر الإفراج عن عدوه يحيى بإذن من جعفر، كما أطلع كذلك على سر الزيارات الليلية، وما أثمرت عنه من طفل وليد، فنزلت هذه الأخبار عليه نزول الصاعقة.

صدمته حقيقة هذه الخيانات المزدوجة من أقرب الناس إليه.

فطاش عقله وسكن قلبه الهم والحزن والحسرة، ومثلما كان متعصبا في حبه للعباسة وجعفر، هاهو الآن يصبح متعصبا في انتقامه، لم يشفع لهما شيء من ذكرى.

فلقد قرر الرشيد معاقبتهما بالموت!

ثم أرسل إلى مسرور الجلاد، فبعثه للقضاء على جعفر، فلما عاد اصطحبه إلى قصر أخته، وهناك واجهها، ثم أمر مسرور بقتلها، فأطار رأسها بضربة واحدة من سيفه، فوقع على الأرض متدحرجا بين قدمي الرشيد.

وهكذا ماتت العباسة بسبب الحب.

هذا الحب الذي رفعها إلى أقصى درجات المجد.

وهو الذي هوى بها، وقضى عليها آخر الأمر.

عريب المأمونية

- <u>شادية البلاد الملكي</u>

هي واحدة من أشهر الجواري اللواتي برعن في الغناء والطرب، حتى تنافس الأمراء والملوك على شرائها والاحتفاظ بها، ولقد استحقت عن جدارة أن توصف بأنها "شادية البلاط الملكي".

ولدت عام ١٨١ هجري، واستطاعت من خلال نبوغها ومواهبها الفذة أن تصل إلى ما لم تصل إليه جارية من قبل في الرفعة والمجد.

ومع ذلك، فقد كانت طفولتها بائسة!

كانت أمها فاطمة الصبية المليحة ذات الحسن والبهاء، مجرد جارية مملوكة لزوجة يحيى البرمكي، فلما رآها جعفر بن يحيى:

تعلق قلبه بها من النظرة الأولى، لكن الجارية الصغيرة استعصت، كانت تعرف مكانتها الضئيلة في البيت الكبير، فجزعت من هذا الحب غير المتكافئ، وما ينتج عنه من مصير محتوم، فتمنعت على جعفر، لكن هذا التمنع لم

يزده إلا عشقًا، حتى تملكته مشاعره وطغت عليه، فذهب إلى أم عبد الله، صاحبة أمرها، وطلب منها أن تزوجه فاطمـة، فوافقت، وأثمر هذا الزواج عن طفلة جميلة، سـماها أبوهـا "عريب". لكن يحيى البرمكي سرعان ما علم بـالأمر، فلـم يعترف بهذا الزواج، ونقم على ابنه بسبب فعلته الشنعاء، بل أقسم أن ينتقم من فاطمة لتجرؤها على الزواج من أسـيادها: بقتلها هي والطفلة، كانت ثورته عاتية، فلم يستطع أحـد أن يثنيه عن غضبه، وأخذ يضيق على فاطمة عيشتها ويعـذبها بالاضطهاد، إلى أن ماتت، حينئذ، أخذ يحيى الطفلة البريئـة فحملها سرا إلى امرأة نصرانية، فوضعها عنـدها وجعلهـا داية لها، على أن يتحمل نفقاتها، ثم دارت الأحـداث حتـى وقعت مذبحة البرامكة، ومات يحيى، ورأت المرأة النصرانية أنها والطفلة أصبحتا بلا معين، فباعت "عريب" إلـى رجـل اسمه"سنبس" وباعها هذا إلى "المراكبي" فأخـذها المراكبـي وسافر بها إلى البصرة، وهناك أحضر لها أكبـر العلمـاء، فعلموها الخط والنحو والشعر والغناء، وغير ذلك من العلوم والفنون، فبرعت في ذلك كله، وأتقنت صنعة الغناء والعزف على الأوتار، كما تميزت في الأدب وإلقاء الشعر بالإضـافة

إلى براعتها في لعبة الشطرنج، وأصبحت عريب بعد فتـرة قليلة من أشهر المغنيات، فقد كانت بالإضـافة إلـى جميـع محاسنها خارقة الجمال.

ولعل شهادة إسحق الموصلي، الأستاذ العلامة البارع الذائع الصيت: أبلغ من أي وصف، فقد قال حماد بن إسـحق الموصلي: قال أبي: ما رأيت امرأة قط أحسن وجهـا وأدبـا وغناء وضربا ولعبا بالشطرنج والنرد من عريب، وما تشاء أن تجد خصلة حسنة طريفة بارعة في امـرأة إلا وجـدتها فيها.

ولما اشتهرت عريـب وازداد معجبوهـا، اشـتراها الخليفة الأمين، فلما قتل هربت عريب إلى مولاها عبد الله بن إسماعيل المعروف بالمراكبي، فظلت في بيته إلى أن اشتراها المأمون بخمسين ألف درهم، وهناك في قصر المأمون بدأت عريب مرحلة جديدة من حياتها، فما إن وقعت عيناها علـى الخليفة حتى مالت إليه، فأخذت تتفرس فيـه بعـين حاذقـة لماحة، تحاول أن تضع يدها على نقطة انطلاقها، على منفـذ تنفذ منها إلى أغوار مشاعره، راحت تتفنن في غوايته، حتى وقع الخليفة في حبها، هو العظيم ذو الجـاه والسـلطان، ذو

القوة والعزم، الحكيم، أكثر الخلفاء علما وثقافة وأدبا وفقها - بشهادة التاريخ - هذا الرجل الذي اجتمعت فيه كل الصفات النبيلة، تردى في هوى جاريته عريب، حتى تخلى عن وقاره، بل ويذكر أنه قبل يوما قدميها على رءوس الأشهاد.

إلى هذا الحد - وأكثر - طغيان الحب!

وبسبب هذا الغرام العنيف لُقبت عريب بـ"عريب المأمونية" نسبة إلى الخليفة المأمون.

وبعد وفاة المأمون اشتراها المعتصم بمائة ألف درهم، وظلت تنتقل من خليفة إلى خليفة حتى انتهت إلى المعتز.

ويذكر المؤرخون أنه لم توجد مغنية في أي عصر من العصور، نالت ما نالته عريب من الجاه والحظوة لدي كبراء الدولة وندماء الخلفاء والأعيان.

أميرة المؤمنين

- زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور

ولدت بطلة قصتنا في الأيام السعيدة المبهجة!

فقد ارتفع شأن الدولة الإسلامية، وامتلأت خزائنها بالذهب، وتمرغ الحكام في النعيم والرخاء.

إنها زبيدة حفيد أبي جعفر المنصور: منشئ بغداد.

ذات الحسن والنسب عالية المقام، مشهورة الأدب والكمال، موفورة الملاحة والذكاء.

عقد قرانها على ابن عمها الرشيد عام ١٦٥ هجري، وزفت إليه وهي يومئذ لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها.

أما حفل زفافها فكان شيئًا أسطوريا!

لم يتوان رواة التاريخ أن يحدثونها بإسهاب عن تفاصيل عرسها، فتشعر كما لو أن حدثًا خرافيا من حكايات ألف ليلة وليلة، فقد كانت تتهادى في ثوب عرسها المطرز بكنوز من الأحجار الكريمة النادرة، فتخطف الأبصار التي تتساءل متعجبة: كيف تستطيع العروس أن تسير حاملة هذا

الثقل الضخم الكبير دون أن تنوء بحمله؟ ألا ترهقهـا كميـة الجواهر الكثيرة التي تتكاثف على ثوبها؟!

بالرغم من ذلك، فإن الذي أُهدى إليها من مجوهرات في عرسها لشيء يذهل العقل.

أما اللؤلؤ، فقد تم نثره على جنبات طريقهـا، فـوق البساط الموشى بأسلاك الذهب الذي سوف تمشي عليه.

وقد استطاعت هذه الأميرة أن تفرض وجودها مـن أول لحظة، كانت شخصيتها قد حددت ملامحها واضحة.

كانت معتزة بنفسها فخورة بأصولها، لهـا حضـور قوي تمتزج فيه الرهبة بالوقار، تلمع عيناها ببريـق أخـاذ لا يقاوم.

وما كاد يمضي على زواجها من الرشيد أربعة أعوام حتى كانت قد ولدت له "محمد الأمين" وبعد ذلك بعام أصـبح الرشيد هو خليفة المسلمين، وكان يومئذ في العشـرين مـن عمره.

وقد امتازت زبيدة عن نساء عصرها بأنها شخصـية متفردة.

كانت تنفر من التقاليد والمحاكاة نفورا شديدا، مما جعلها تصمم لنفسها الأزياء، حتى لا تضطر إلى أن تلبس أثوابا تتشابه في تصميمها مع غيرها، بل إنها أدخلت تعديلا كبيرا على عصابة الرأس، فقد كانت عادة الأميرات أن يزين عصابة الرأس بالمجوهرات والأحجار الكريمة، فخالفت هذه العادة، فوضعت على العصابة قطعة من النسيج الأسود الرقيق، مما أكسبها انعكاسا جليلا ووقورا، حتى أخذ نساء القصر يقلدونها في ذلك، وتكاد تكون زبيدة هي المرأة المسلمة الأولى التي استعملت الأواني الفضية والذهبية، وخيوط الذهب، وكانت مشهورة بأناقتها الباهظة التكاليف، فكانت لا تبخل على أثوابها، حتى ليقال: إن لها ثوبا بلغت تكاليفه خمسين ألف دينار!!

كذلك عرفت زبيدة باهتمامها بالجواري، فقد كانت تحرص على أن تنتقي ذوات الجمال والمعرفة والكتابة والشعر، وكانت لها مائة جارية تخصصن بحفظ القرآن وتلاوته ليل نهار، فكان المارة بجوار القصر يسمعون صوت الجواري وهن يقرأن القرآن في كل الأوقات.

ولقبت زبيدة بـ"أم المحسنين"، فلقد اشتهرت بأعمالها الخيرية الكثيرة، وعطاياها التي ليس لها حد، فكم أنشأت من مدارس ومستشفيات، وأمرت بتأسيس الملاجئ لإيواء اليتامى والمساكين، ومن آثارها الجليلة التي كان لها أكبر الأثر فـي منفعة الناس حفر الآبار والعيون ومنها عين " الشماس" حيث أنفقت عليها ألف ألف وسبعمائة ألف دينـار. وينسـب إلـى زبيدة مسجد زبيدة أم جعفر ببغداد.

وكما اهتمت زبيدة بالعمليات الإصلاحية والمرافـق الخيرية، فلقد اهتمت أيضا برجال العلم والأدب والفـن فـي عصرها، وجمعت حولها أرباب الفنون والعلماء، تغدق عليهم من مالها، وتكرمهم بالعطايا والمكافآت.

ولكن رغم كل هـذه الأفعـال الجليلـة والأعمـال العظيمة، فإن التاريخ لم يغفر لزبيدة غلطتها الوحيدة! كانـت هذه الغلطة هي نقطة ضعفها.

وكانت نقطة ضعفها هي حبها الزائد لابنها الوحيد ـ الأمين ـ لقد صب التاريخ كل غضبه وسخطه علـى ذلـك الحب الذي فاق الحد، حتى تحول إلى طاغية مستبد، أضـر بالأمة واستخف بمصالحها.

في أول الأمر دفعها حبها الكبير لابنها الأمين إلى تدليله، فقد أغدقت عليه مشاعرها الفياضة حتى أفسدته، فشب لاهيا فاسدا، لا يشغله شيء سوى حب الذات والشهوات وأصبح محركه الأساسي غروره وغرائزه، بالرغم من هذا فإن زبيدة تحارب الجميع من أجله وتفلسف أخطاءه، ثم انتهى الأمر بأنها أرادت أن تجعله وريثًا للملك على عرش الخلافة، فأخذت تسعى مستخدمة كل الوسائل، حتى تضمن لابنها خلافة المسلمين، غاضة بصرها عن المساوئ والعيوب التي كانت واضحة جلية في هذا الشاب الخليع، وأخذت تحاصر زوجها الرشيد كي يعطي البيعة للأمين، حتى لا ينازعه في الخلافة ابنه المأمون، ثم أخذت تشن حربا شعواء على كل من يتجاسر فيذكر ابنها بسوء، وتصب غضبها على كل من ينتقد سلوكه، أما هؤلاء الذين تجرءوا وفضلوا المأمون على ولدها، وأشادوا بمحاسنه فقد كانوا في نظرها مجرمين آثمين، لا يجوز الصفح عنهم.

وكان جعفر البرمكي من زمرة هؤلاء المجرمين! لأنه كان ناقدا صريحا لسلوك فلذة كبدها الأمين، فأصبح هدفًا

لطغيانها، تكن له الكراهية العمياء، وتتآمر عليه لإزاحته من الطريق.

وكان جعفر البرمكي من أخلـص نـدماء الرشـيد وأقرب الناس إلى قلبه، وكان لا يكاد يفارقه فهـو وزيـره الصادق صاحب الرأي السديد، فكان الخليفة لا يبـرم أمـرا دون استشارته، وكان يعتمد عليه في أغلب شئون الولايـة، وقد كان جعفر بقدر ما ينتقد الأمين، بقدر ما يشيد بالمـأمون ابن الرشيد، وكان يحبه كثيرا ويقدره لصفاته الجليلة، فقد نشأ المأمون نشأة صارمة، لم يفسده أحد بتدليل زائد، فاجتهد في المعرفة والتعلم حتى أصبح أميرا فاضلا مهذبا نافـذ اللـب، واسع الفهم طيب الخصال، مع فروسية وقوة نادرة، فأحبـه الناس جميعا، وتبوأ في قلوبهم مكانة عالية.

لكن في عام ١٨٦ هجري حدث الأمر الـذي فجـر بعده بركانًا.

في هذا العام ذهب الخليفة للحـج، مصـطحبا معـه زوجته زبيدة وابنيه الأمين والمأمون، وعـددا كبيـرا مـن الأمراء والأعوان، ومعهم وزيره جعفر بن يحيى البرمكـي، وبعد إتمام مراسم الحج، عقد اجتماعا طارئًا دعا فيـه ابنيـه

وزوجته وجعفر، بالإضافة إلى بعـض العلمـاء والـوزراء ومجموعة من خلصائه، وفيه كتب الرشيد وصيته، وأعلـن بيعته لابنه المأمون بخلافة العرش وولايـة العهـد، وكتـب المواثيق على هذه البيعة، وأشهد عليها الحضور، ثم طالـب من الأمين والمأمون أن يقسما بيمين الطاعة والولاء بكل ما جاء بالوصية، فلما أقسما أخـذ جعفـر بيـد الأمـين أمـام الحاضرين جميعا، وطلب منه أن يـردد وراءه: "إذا خنـت الأمانة فليقهرني الله" فرددها الأمين ثلاث مرات. كـل هـذا وزبيدة جالسة مقهورة من الغيظ والهزيمة، ولا تقوى علـى المجادلة والعصيان، فها هو الهدف الذي سعت إليه يـتحطم أمام عينيها، ولم تجد أمامها سوى جعفر عدوا لأمانيها، حيث لمحت طيفه وراء الأحداث، فأخذت تنظـر إليـه بنظـرات كالسهام ملؤها الغضب والحقد، وقررت من هذه اللحظـة أن تقضي على جعفر بأي ثمن.

فلابد له أن يموت، كي يجلس الأمين على العرش.

وقد استطاعت زبيدة أن تفي بوعدها لنفسـها بعـد مرور عام واحد على ذلك الاجتماع.

ففي عام ١٨٧ هجري قُتل جعفر البرمكي على يـد مسرور الجلاد، وراح هذا الوزير العظيم الحكـيم ضـحية عاطفة الأمومة واستبداد صاحبة النفوذ.

وبعد مقتله تم تعيين الفضل بدلا منـه بإيعـاز مـن زبيدة، حيث كان الفضل بن الربيع ربيب نعمتهـا، محبـوب ابنها، وواحدا من أخلص أتباعها.

وبعد ذلك بستة أعوام، مات الرشيد خليفة المسلمين.

ولم يضع الأمين الوقت، أخذ خاتم الخلافـة وسـيف أبيه وكسوته الخاصة المعروفة، وأخذ لنفسـه البيعـة مـن الوزراء، حتى إذا اطمأن لمساندتهم له: خرج الناس فصـلّى بهم، ثم خطب فيهم فبايعوه بالخلافة، أما الجيش فقـد تـولى أمره الوزير الفضل الذي استطاع بذكائه أن يستقطبه لصالح الأمين، فنكثوا عهدهم مـع الرشـيد بمـؤازرة المـأمون، ومناصرة ملكه، وأعلنوا ولاءهم للأمين خليفـة المسـلمين، وعليه كافأهم الأمين بمكافأة مالية كبيرة.

أما المأمون، فقد كان في ذلك الوقت فـي خراسـان واليا عليها، حيث كانت الأوضاع غيـر مسـتقرة، والفـتن والدسائس تموج فيها، ولابد لها من قبضة حديديـة تمسـك

بزمام أمورها، فتولاها المأمون، صاحب الشخصـية الفـذة والمزايا النادرة، فسيطر على أوضاعها وأخضعها لميـزان قوته، فلما وصلته الأنباء باستيلاء الأمين على العـرش لـم يراجعه فيما فعل، بل لقد أرسل له الهدايا والتهاني، متمنيـا صلاح الأمر.

لكن الأمين أثبت أنه آخر من يصلح للحكم.

فلقد اعتبر أن توليه الخلافة هي رخصة للتلهي.

لم يشغل نفسه بأمور الدولة، لأنه كان مشغولا طول الوقت بالتسرية عن نفسه، فجمع حوله النـدماء الفـارغين، وقسم الأموال والجواهر الثمينة من خزينـة الدولـة علـى الخصيان والنساء، أما الراقصات فقد اختارهن بعناية من كل البلدان حتى وصل عددهن إلى مائة راقصة، كل واحدة تجيد ألوانًا من الرقص مدهشة تخطف الأبصار، بمـا لهـا مـن حركات إيقاعية رشيقة، وبما تتزين به من حلـي وجـواهر ثمينة.

في هذا الترف انغمس الأمين.

أما زبيدة فقد انشرح صدرها برؤية قرة عينها خليفة المسلمين، بعد أن استخدمت كل مهاراتها لبلوغ هذه الغايـة،

بل لم تجد في نفسها رادعا من أن تذهب إليـه مهنئـة فـي موكب فخم مهيب، تحيط بها الأعلام والرايـات والزينـات، وحولها ازدحم الناس مشدوهين من فخامـة هـذا الموكـب وعظمته.

لكن أعداء الإسلام المتربصين بالدولة، لـم يجـدوا فرصة أسنح من هذه، وهكذا بدأت رايات العصيان ترتفـع، وبدأت التحركات الثورية تنشط، وزاد الخطـر علـى أمـن الدولة وتماسكها.

لكن خليفة المسلمين كان وقتها مهتما بشيء آخر!

سعى الفضل بن الربيع وزير الأمين ـ بمناصرة من زبيدة وبالإيعاز إلى الأمين ـ إلى خلـع المـأمون نهائيـا والبيعة لابنه موسى بن الأمين، فقد كان الفضل مذعورا من فكرة أن يتولى المأمون الخلافة يوما من الأيام، فلقـد خـان العهد، وتآمر على الخليفة الأحق، فهل يتركه المـأمون دون انتقام؟! كان يعلم أنه لو قُدر للمأمون أن يتولى العرش، فلـن يتركه حيا دون عقاب، من أجل ذلك أخذ يوسوس فـي أذن الأمين بالتحايل على المأمون واستدعائه إلى بغداد، وإجباره على البيعة لموسى، لكن المأمون الفطن الذكي أحس بالغـدر

يتربص به، فرفض الذهاب إلى بغداد، مما عده الأمين عصيانًا وتكبرا. وهكذا أخذت نار العداوة تتأجج بين الأخوين خاصة بعد منع الأمين أن يذكر اسم أخيه في بغداد، وقبض على وكلائه وأتباعه، ثم خلعه، وولى ابنه موسى وليا للعهد، بعد أن أطلق عليه لقب "الناطق بالحق"، بل إنه أحضر وصية أبيه من مكة المكرمة ومزقها إربا.

وهكذا نما الشر..

فأغلقت الطرق بين بغداد وخراسان، وانتشر الجواسيس، وزبيدة وراء الأحداث تنتظر قهر المأمون وانتصار ابنها، ولأجل التعجيل بالنهاية المرجوة، فقد صمم الأمين على عزل أخيه بالقوة، وأرسل من أجل ذلك جيشًا كبيرا قوامه خمسون ألفًا، حتى يقال إنه ما رؤي في بغداد قبل ذلك عسكر أكثف منه، ووضع على رأس الجيش علي بن عيسى بن ماهان، وزحف الجيش إلى خراسان، لكن قبل أن يصلوا واجههم جيش المأمون بزعامة طاهر بن الحسين، حيث دارت معركة رهيبة انتصر فيها جيش المأمون، فبعث طاهر بن الحسين رأس على بن عيسي رئيس القوات إلى المأمون، وبشره بالنصر، فلما وصلت الأنباء إلى بغداد

بالهزيمة: ثار الأمين، وأقسم أن يواصل الحرب للنهاية، وأن يقضي على المأمون وأعوانه مهما كانت التضحيات، فأخـذ يرسل الجيوش مرة تلو الأخرى، لكـن الهزيمـة لاحقتـه، وتقهقرت جيوشه أمام طاهر بن الحسين، إلـى أن اسـتطاع طاهر الوصول إلى بغداد عاصمة الخلافة، فدخلها بعد قتال شديد، وحصار دام عدة أشهر، وأسر الأمـين، ونقلـه إلـى حصن بمدينة المنصور وشدد عليه الحراسة، لكن الأمين قُتل بعد ذلك على أيدي بعض الجنود، وهو يفر هاربـا، ومـات وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وكانت مـدة خلافتـه أربع سنوات وثمانية أشهر وبعض الأيام.

فلما وصل النبأ إلى زبيدة أصابتها الصدمة.

لم تقو على احتمال الخبر المشئوم، فسقطت مريضة بسبب حزنها وألمها الموجع على الأمين، وارتـدت السـواد عليه وقلبها ينزف حسرة وقهرا.

لكن يبدو وكأن المصائب كانت تتزاحم عليهـا، فلـم تكتف الأيام بما أصاب زبيدة من لوعة، وما هي فيـه مـن عذاب، بل أرادت الانتقام منها بسبب أفعالها الشـنيعة، ومـا

أزكته من فتن بين الأخوين، وقد كانت أداة هذا الانتقام في يد طاهر بن الحسين.

فإن طاهر لم يترك زبيدة في حالهـا، فقـد صـادر أملاكها، وضيق عليها معيشتها، ووضع حدا لنفوذها، بل لقد حاصرها بالعذاب، وكأنه قد حكم عليهـا أن تقضـي بقيـة عمرها وحيدة ذليلة.

فلما وجدت زبيدة نفسها على هذه الحال، وأنهـا قـد أصبحت أسيرة في يد عدو لا يرحم، كتبت إلـى المـأمون تشكو له، وتطلب أن ينقذها من يد طاهر فقالت له:" كل ذنب يا أمير المؤمنين وإن عظم صغير إلى جنب عفوك، وكـل إساءة وإن عظمت يسيرة لدى حلمك، وذلك الذي حباك بـه الله، أطال مدتك، وأتم نعمتك، وأدام بك الخير، ودفع عنـك الشر، وبعد فهذه رقعة الولهى التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي، وتصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك له الله طالبا وفيه راغبا فافعل، وتذكّر من لو كان حيا لكـان شفيعي لديك".

ثم أخذت تسرد عليه شكواها، وما تلاقيه من عـذاب وهوان، وما يعاملها به طاهر من قسوة واضطهاد، وأرسلت الرقعة مع جاريتها "خالصـة" وأوصـتها أن تسـلمها إلـى المأمون يدا بيد.

فلما وصلت الرقعة إلى المأمون، وعرف ما فيها: بكا ورقّ قلبه على زوجة أبيه، وأم أخيه، ثم أجاب زبيدة بكتاب لطيف ودود، يطمئنها فيه على حالها، ويصل وده معها. ثـم أمر برد أموالها وضياعها إليها، وأنّب طاهر على ما فعلـه، وأمره برفع قدرها وإصلاح شأنها ورعايتها رعاية كاملة.

بعد ذلك عاشت زبيدة في الجاه والنعيم، يحيط بهـا حشد من العلماء والموهوبين، حيث فتحت قصـرها تتبنـى أصحاب العلم والفنون، وتغدق عليهم، وتعين لهم المرتبـات، وتجود عليهم بالعطايا، ولم تبخل على المحتاجين والفقـراء، بل كانت لهم نعم المعين وأفضل المحسنين.

ولقد شغلت زبيدة نفسها فيمـا بقـي مـن عمرهـا بالأعمال الخيرية التي توسعت فيها، والتي لا تزال آثارهـا موجودة حتى اليوم، واهتمت بصفة خاصة بحفـر العيـون والآبار، فقد كانت أزمة المياه في ذلك الوقت مشكلة قاسـية،

حيث كان الماء يباع لندرته وصعوبة الحصول عليه، فأسالته عذبا منحة مجانية في قلب الصحراء، تقي النـاس العطـش وترويهم دون مقابل.

وتوفيت زبيدة في بغداد في جمادى الأولى عام ٢١٦ هجري عن عمر يناهز التاسعة والستين، بعد حيـاة مليئـة بالأحداث.

دنانير

- <u>مغنية الرشيد</u>

اسمها معروف في العالم الغناء.

اشتراها رجل من أهل المدينة، فعلّمها الغناء والعزف حتى أتقنتهما وبرعت فيهما، فلما رآهـا يحيـى بـن خالـد البرمكي، هزه صوتها فاشتراها.

وكانت دنانير قد تعلمت الغناء على يد أمهر المغنين في عصرها: أمثال إبراهيم الموصلي، وإسحق الموصـلي، وابن جامع.

وذات يوم دعا يحيى البرمكي أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى قصره، حيث أولم لـه وأعـد مجلـس ترفيـه وطرب، وهناك سمع الرشيد دنانير تغني بصـوت أعـذب وأرق من النسيم، ولفت نظره ضـبطها الألحـان والـنغم، فأطربه شدوها وأثنى عليها وتعلق بها، فكان يتـرك قصـره ويذهب إلى قصر يحيى خصيصـا كـي يسـتمتع بغنائهـا ويسامرها، حتى أصبح مجلسه معها عادة محببة إليه، يهفـو لها كلما ضاق صدره وزاد همه، فتزيح عنه الهموم بمنادمتها

اللطيفة وصوتها الساحر، تخلب لبه بمهارتها الفنية وقـدرتها الإبداعية، كانت إذا لاح لها الخليفة مشغول الخاطر متعكـر المزاج تستخدم كل مهاراتها وفنونها لتستميله إلـى شـذى الألحان، فتدهشه بأغنية تعصف بالقلوب، تغنيها بكل كيانها، كأنها تمتزج باللحن والأشعار، فيأخذه هذا من خواطره وينقله على عالم الفرحة والبهجة والنعيم، فينتشي وجدانه ويتجـدد مرحه، حينئذ كان الخليفة يأمر لها، ويخلع عليها، وقد كـان كريما معها إلى أقصى حدود الكرم، لدرجة أنه أهداها مـرة عقدا ثمنه ثلاثون ألف دينار!

وقد أثار اهتمام الرشيد الكبير بدنانير شكوك زوجته زبيدة، فإن زبيدة لم يعجبها أن ينشغل الخليفة بهذه الجاريـة، وأصبحت تغار عليه، خصوصا بعد أن أهداها العقد، فجمعت أهله وعمومته وشكته لهم واتهمته أمامهم، فلما عـاتبوه فـي أمرها قال: مالي في هذه الجارية من أرب في نفسها، وإنمـا أربي في غنائها فاسمعوها، فإن استحقت أن يؤلفَ غناؤهـا وإلا فقولوا ما شئتم.

وبالفعل اصطحبهم الرشيد إلـى دار يحيـى، فلمـا سمعوا غناءها علموا قدرها، فالتمسوا العذر له.

فقد كان هذا الصوت جديرا بأن يسمع ويؤلف.

وبعد أن حدثت مذبحة الأسرة البرمكية، انتقلت دنانير إلى قصر هارون الرشيد، فلما طلب منها الغناء، أبـت أن تغني حزنًا على مولاها يحيى وإخلاصـا لـه، فاسـتدعاها الخليفة وأمرها بالغناء فقالت له: "يا أمير المؤمنين، إني آليت على نفسي ألا أغني بعد سيدي أبدا"

فغضب عليها الرشـيد وأمـر بصـفعها وتأديبهـا وإرغامها على الغناء، فلما فعلوا بها هذا تناولت العود وهي تبكي وأخذت تغني:

يا دار سلمى بنازح السند

من الثنايا ومسقط اللّبد

لما رأيت الديار قد درست

أيقنت أن النعيم لم يعد

لما سمعها الرشيد رق لها، وعطف عليها، وأمر لها ووهبها حريتها، فانصرفت مـن قصـره مالكـة لأمرهـا وحريتها، وكان هناك رجل يهواها هو عقيل مولى صالح بن الرشيد، فأراد أن يتزوجها لكنها رفضت، فألح عليها، لكنهـا ظلت متشبثة بموقفها، رافضة كل العروض المغرية، مفضلة

الوفاء التام لذكرى يحيى البرمكي، فما كان منه إلا أن بعـث لها يقول:

يا دنانير قد تنكّر عقلي

وتحيرت بين وعد ومطل

شفعي شافعي إليك إلا

فاقتليني إن كنت تهوين قتلي

ما أحب الحياة يا أخت إن لم

يجمع الله عاجلا بك شملي

لكن موقف دنانير لم يتغير، ولم تتزوج أحدا حتـى آخر عمرها، وتوفيت عام ٢١٠ هجري.

ومن أهم أعمالها: أنها ألفت كتابا في الغنـاء، يعـده المتخصصون مرجعا فنيا هاما وفريدا.

صبيحة

- <u>ملكة قرطبة</u>

الملكة صبيحة - أو صبح كما كان يحلو للخليفة المستنصر أن يدعوها - هي بلا شك المرأة الفولاذية في العصر القديم.

فقد تفردت هذه الملكة بشخصية قوية غير عادية، كان زوجها الخليفة الحكم المستنصر بالله رجلا فقيها عالما، فجعل من الأندلس ملتقى للعلماء والأدباء والفقهاء، وشهدت البلاد في عهده نهضة علمية واقتصادية كبيرة، وكان من ضمن أهدافه الكبيرة أن يحول قرطبة إلى مركز للعلم والعلماء، فسعى إلى كل أصحاب المعارف والفقهاء من سائر الأقطار ليستقطبهم إلى الأندلس، وبالفعل جاءوا إليه من كل صوب، فأكرم الخليفة وفادتهم، وهيأ لهم مقامهم، وبدأت البلاد تشهد عصرا جديدا من الانفتاح والازدهار، فزادت الجوامع وانتشرت حلقات الدرس، وتهافت الطلاب يتزاحمون على تلقي العلوم من أربابها العظماء، والخليفة الحكم يوجه

كل طاقاته من أجل رسالته السامية في جعل الأندلس بـؤرة الإشعاع الحضاري على العالم كله وقلعة العلم.

لكن هذه الرسالة السامية كانت تأخـذ الخليفـة مـن مسئولياته تجاه شئون الحكم، لهذا سارعت صبيحة تعـرض عليه أن يتفرغ تماما لأهدافه العلمية، ويترك لها مسألة إدارة البلاد. ولأنها كانت ذكية، حكيمة بارعة التـدبير فقـد رأى الخليفة أن يمنحها من السلطات ما يخولها للحكم نيابة عنه.

فحملت هذا العبء وحدها، واستطاعت بمهارة فائقة أن تثبت جدارتها لما أسند إليها.

تولت صبيحة زمام الأمور في المملكة بقبضة مـن حديد، وتعاملت مع مصالح الرعية والسياسة الداخلية بمنتهى الحزم والتدبير، ولم تنقض فترة طويلة، حتى كانت صـبيحة هي صاحبة الرأي الأول والأخير في طول البلاد وعرضها، فلم يكن أحد يجرؤ على معارضتها، أو عصـيان أوامرهـا مهما كانت، فإن قوة شخصيتها تفرض عليهم حصـارا مـن الرهبة والخضوع، أما الخليفة المستنصر فقد تـرك مسـرح الأحداث باختياره، وجلس في مقعد المتفرجين منشغلا ـ بما هو لديه من طموح علمي ـ عن كرسي العرش وتقلصـت

سلطته شيئًا فشيئًا حتى أصبحت سلطة أدبية لا غير، بينمـا الملكة صبيحة صاحبة السلطة الفعلية، هي التي تعقد مجلـس شورتها وهي التي تكتب المراسـلات والمراسـيم، وتفنـد الأوضاع وتتفقد الحكام والأمراء، وتتابع سير العدالة وتحقق في مظالم الشعب، وتدبر الشئون المالية والاقتصادية وتراقب أوضاع المملكة في الداخل والخارج، وتقـوم بالإصـلاحات وتعمل على تنمية الموارد. ومع كل هذا فإن الملكـة أيضـا قامت بتجهيز جيش قوي للدفاع عن البلاد وتحصينها من أي عدوان، واستطاعت الملكة ضبط المملكة، كمـا اسـتطاعت اجتذاب حب الناس وتقديرهم، كانت لا تألو جهدا في سـبيل رفعة البلاد، وفي كل يوم جديد كانت تضيف إلـى جـدول أعمالها المزيد من الأعباء والمهمات، فلما زادت مشـاغلها أخذت تبحث عن كاتب ثقة ليقوم بتحرير أوامرها وتبليغهـا، وكان هذا العمل يعادل مهنة سكرتير خاص، فوقع اختيارهـا على شاب يتلقى علومه في جامع قرطبة واسمه محمـد بـن أبي عامر، وكان شابا ذكيا ووسيما وطموحا فـي السادسـة والعشرين من العمر، وقد بادر محمـد فـور تعيينـه إلـى اكتساب ثقة الملكة بكل الطرق، وراح يتقرب منها مسـتخدما

كل الوسائل، حتى نجح في استمالتها والتأثير عليهـا، فنـال معاملة خاصة، ثم ترقى بسرعة في المناصب حتى أصـبح مستشار الملكة، قائما على ضياعها وممتلكات ابنهـا هشـام ولي العهد.

وأثار ذلك أقاويل الناس، وبدأت الألسنة تلقي ظلالاً من الشك على هذه العلاقة الشائكة، وتستنكر إيثار الملكة لهذا الشاب الجميل، والمنح والعطايا التي تجود بها عليه، وحـين زادت الشائعات، حتى وصلت إلى مسامع الخليفة، قرر بعث محمد بن أبي عامر إلى مراكش في مهمة عاجلـة، وكلفـه بمراجعة حسابات بيت المال هناك وضبط الدفاتر والتحقيـق في قضية التلاعب المالي التي كان مهتما بها واحد من أكابر الدولة هناك، وبالفعل نفذ الشـاب الـدءوب أمـر الخليفـة، واضطلع بالمهمة الموكلة إليه على الوجه الأكمل، لكن فـي زمن قياسي، فقد عاد محمد بن أبي عامر إلى قرطبـة فـي أسرع وقت.

في هذه الأثناء داهم الخليفة مرض الموت، وأصبحت أيامه في الدنيا معدودة، فرأت الملكة صـبيحة أن تتصـرف بسرعة لتضمن العرش، وتزيح من طريقها نهائيا أي منافس

يغريه الطموح في الملك إلى المناوشة وإثـارة المشـكلات، خاصة وأن المغيرة بن الحكم أكبر أبنـاء الخليفـة الحكـم المستنصر كان خصما لا يستهان به، لذلك أرسـلت الملكـة على الفور إلى كبراء الدولة وقادة الجنـد ورجـال الحكـم وعقدت معهم اجتماعا طارئًا بحضور الخليفة، وفيـه مـنح الخليفة ولاية العهد من بعده لابنه من صـبيحة "هشـام بـن الحكم"، وكان لم يزل صبيا في الحادية عشرة مـن عمـره، وكتب بذلك المواثيق وأشهد عليها الحضور، بعد أن أقسـموا يمين الطاعة والولاء. وهكذا نجحت صبيحة فـي الاسـتئثار بالملك لها ولابنها دون منازع، وإقصاء المغيرة بـن الحكـم الوريث الشرعي، والأحق بالملك من أخيه الذي كان لصـغر سنه غير مؤهل لهذا المنصب.

وما هي إلا أيام، حتى مات الخليفة، وكان خلصـاء الملكة قد نجحوا في تهيئة الرأي العام لتقبل الخليفة الصغير، ونشر الدعوة بين الناس لمناصرته والتحيز له، فلمـا تـولى الأمر، بعد موت الحكم المستنصر، هتفت الجماهير باسـمه ودعت له، بالرغم من ذلك فقد ظل الخليفة حاكما شكليا فقط، وظلت الملكة صبيحة باعتبارها الوصية الشرعية هي الحاكم

الفعلي، وصارت مهيمنة على كل شئون المملكة ومسيطرة عليها، ولكن المغيرة بن الحكم وقف لها بالمرصاد ولم يغفر لها اغتصابها الملك منه، فبادر إلى مناصبتها العداء، ولم يعترف بابنها خليفة واعتبره سارقًا لحقه الشرعي، والتف حوله عدد من الأعوان يناصرونه وينشرون قضيته ويستقطبون الناس موالين له، وأخذ المغيرة يعقد العزم على البطش بصبيحة وابنها، ويدبر الأمر للقضاء عليهما.

فلما رأت الملكة ما يتهددها من خطر وشيك، قررت القضاء على المغيرة قبل أن يستفحل شره، فتآمرت عليه ووجهت له ضربة قاضية، فتخلصت منه ومن أعوانه جميعا، وبعد أن استتب الأمن: وجهت الملكة طاقتها نحو القيام بحركة إصلاح شامل للبلاد، فخفضت الضرائب، ووضعت خطط الإصلاح الاقتصادي، وقامت بإصلاح البنية التحتية، وبذلت أنشطة واسعة في مجال التشييد والعمران، واهتمت بالأمن الداخلي وتماسك الدولة، كما سارعت على نهج زوجها في رعاية الفنون والآداب، ووقفت تساند النهضة الفكرية التي وضع بذورها وتبذل لها كل مساعدة ممكنة.

ولقد أحبها الناس بسبب أعمالها الجليلة.

ووقف الشعراء على بابها يتغنون بفضائلها.

وسعى إليها السفراء من كل مكان في العالم ينشدون ودها.

واحترمها العلماء والأدباء كشخصية نادرة الحكمـة، فياضة العطاء.

أما الشعب فقد شغف بها، وشكر الله أن أنعم عليـه بمثل هذه الملكة العادلة الخيرة.

وهكذا كانت صبيحة محط الأنظار، وموضع التبجيل والاحترام ومحل الثقة والامتنان.

ولكن الأيام كانت تدخر لها مفاجأة رهيبة!

فقد ظهر لها منافس جديد يطمع في العرش.

وللأسف كان هذا الشخص هو آخر إنسان تتوقع منه الشر، كان هو محمد بن أبي عـامر ـ الشـاب المتواضـع المكانة ـ الذي كان في يوم من الأيام مجرد مستخدم بسيط، لا يجرؤ أن يرفع عينه.

الشاب الذي أشـفقت عليـه فرفعتـه إلـى أعلـى المناصب، والذي كان يبدي لها من براهين الإخلاص والوفاء ما يستقطب به مشاعرها ورضاها.

هذا الذي أحبته ورفعت من قدره، وعرضت نفسـها للوشايات والأقاويل ثمنًا للوقوف في صفه، ها هـو اليـوم، ويا للعجب.. لا يدخر وسعا للقضاء عليها!

كان محمد بن أبي عامر، قد اسـتطاع فـي الفتـرة الأخيرة أن يحدد بدقة هدفه، ثم اتبع الطرق العملية السـريعة للوصول إلى هذه الأهداف، ولما كان عالي الهمـة، شـديد الطموح، يتميز بالذكاء الحاد والصبر والقدرة على التـدبير والحزم، فقد استطاع باستخدام هذه الوسائل أن يكون جبهـة لا يستهان بها، تضم بجانب الجنود الذين انتظموا في كتائـب حربية تحت قيادته، مجموعة من العلماء والفقهـاء، وكبـار رجال المال والأعمال والسياسة، وبهذه الجبهة خاض محمـد معركته ضد صبيحة لانتزاع الحكم.

ولم تكن معركة سهلة.

فرغم أن الثورة قـد تـوافرت لهـا كـل العوامـل لإنجاحها.

ورغم مقدرة قائدها الدفاعية التي لا يسـتهان بهـا، ورغم مؤهلاته الشخصية التي فرضته على الساحة خصـما شديد الخطورة، ورغم أن قربه من صبيحة في الماضي قـد

منحه ميزة دراستها ومعرفتها معرفة كلية، تتيح له فرصـة التنبؤ بردود أفعالها.

إلا أن هذا القائد لم يضع في حسبانه قوتها الداخلية!

هذه القوة التي لم تسمح لها بالهزيمة أبدا.

هذه القوة التي صارت دافعها للصمود والتحدي.

فقابلت الملكة عدوها بشجاعة وصـلابة نـادرتين، وواجهت عنفه بعنف أكبر منه، وهكذا بدأت الحرب ولكنها لم تنته.

فإن الصراع الذي يشتد يوما بعد يـوم، لـم يحسـم لصالح أحد.

والمعركة التي أثارت الذعر في القلـوب، وراحـت ضحيتها النفوس، لم ينتصر فيها أحد.

فظلت قائمة، وأصبح هذا النزاع فتنـة تـؤدي إلـى حافة الهاوية، فدب الفزع بين الناس وعمت الفوضى، وانتشر الفساد وتوقف سير الأعمال، حتى بات الوضع أشبه بكارثه.

وفجأة.. مات محمد بن أبي عامر وكان ذلـك عـام ٣٩٢ هجري.

وانتهت الفتنة.

بعد موت محمد تمكنت الملكة مـن قمـع الثـورة، والقضاء على مثيريها وأعادت الأمن إلى البلاد.

وبعد ذلك ظلت صبيحة تحكم كملكة علـى عـرش الأندلس، دون منازع حتى توفيت عام ٣٩٨ هجري.

ست الملك

- <u>امرأة خطرة</u>

اشتهرت ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي بأنهـا امرأة خطرة.

كانت صاحبة نفوذ وسلطان.

بارعة في أمور السياسة.

وكان والدها العزيز يستشيرها في أمور الدولة، مما أدى إلى ازدياد خبرتها السياسية.

وإلى جانب هذا، فقد كانت تتمتع بذكاء خارق وثقافة موسوعية، ولما حضر الخليفة الموت أوصـاها أن ترعـى أخاها ولي العهد، وتقف جانبه تساعده في الأمر.

وقد كانت هذه الوصية هي السبب في بروزها علـى مسرح الأحداث، وتأثيرها الفعـال علـى عـرش الخلافـة الفاطمية.

مات الخليفة العزيز، وتولى حكم البلاد مـن بعـده أخوها الحاكم بأمر الله، والذي كان حكمه مهددا مـن قبـل "برجوان" الوصي على العرش، حيث كانـت المملكـة فـي

قبضة يده، بعد أن فرض عليها سلطانه وهيمنته، فوقفت ست الملك تعزز ملك أخيها وتحميه من سيطرة برجوان.

ولكنها فوجئت بما لم يكن في الحسبان!

فقد بدأت تظهر على الخليفة أمور عجيبة!!

فجأة، أصدر الخليفة أمرا ملكيا بتحريم أكل الملوخية والقرع والفجل على كافة أهل المملكة، وبعدها بأيام أصـدر أمرا بإطفاء الأنوار ليلا، وحرم على النساء الخـروج إلـى الطرقات أو التطلع من النوافذ، وبعد ذلك أصدر أمرا آخـر بمنع صانعي الأحذية من صنع أي حذاء لهن وحرم علـيهن ارتدائه.

ولم يكتف بذلك، بل أعلن مرسوما ملكيا بمنع النساء من البكاء على الموتى والسير وراء الجنازات، ومنعهن من دخول الحمامات العامة.

أما ست الملك، فقد أذهلتها هذه التصرفات الغريبـة، وحارت فيها، وحاولت أن تقنع نفسها بأن الخليفة يمر بنزوة طارئة وأن عليها احتمالها، ولكنها لما بدأ يعـزل الـوزراء والقواد دون سبب منطقي، ويستحي الناس والأمـوال ظلمـا وبهتانًا، وجدت أن من واجبها أن تتدخل في الأمر، ومن ثـم

فقد واجهت أخيها وتحدثت معه بالحكمة والعقل، تبصره إلى سوء أفعاله وتصرفاته، لكن الحاكم بأمر الله غضب من تدخلها في أموره، ولم يغفر لها تطاولها عليه بالنقد والنصح، فرد عليها بخشونة وجفاء، وهددها بالعقاب الصارم لو حاولت إزعاجه مرة أخرى.

ومن يومها بدأ الحاكم بأمر الله يعادي ست الملك، ويضيق عليها معيشتها.

وعلى الجانب الآخر، كان الناس في الشوارع يتذمرون من هذه الأمور الغريبة غير المنطقية، التي يجبرهم هذا الخليفة على اتباعها.

ويوما بعد يوم أصبحوا يستهزئون به.

ثم في النهاية أطلقوا عليه لقب "المجنون".

وقد بدا الخليفة كما لو كان قد فقد عقله فعلا.

فأخذ يتجسس على الناس بشكل مبالغ، ودس جواسيسه في كل مكان، وأصبح التجسس على كل صغيرة وكبيرة شاغله الشاغل، حتى أصبح هذا الأمر خطرا على الأمن العام. وبدأت أمور الدولة تضطرب بسبب الإجراءات التعسفية، وسادت حالة من الفوضى وعدم النظام، وخشى

الناس على أنفسهم وأموالهم، بعد أن كثر أخذ الناس وحبسهم بالظن، أو الافتراء عليهم، وقتلهم طمعا في أموالهم.

وفي وسط هذه "المعمعة" ادعى الحاكم بأمر الله أنـه إله!!

كان قد بلغ ذروة جنونه.

أعلن فجأة أن روح الوجود قد حلت فيه!

وأنه صار تبعا لذلك الرب المعبود، ولم يعد بشرا!

ولكي تكتمل عناصر الفاجعة، أمر الناس أن يعبدوه، وكان قد جمع حوله بعض المهووسين الانتهازيين، فرسـخوا جنونه بولائهم له.

وقد أصبح الخليفة منذ أن ادعى الألوهيـة طاغيـة لا يعرف رحمة أو شفقة، فملأ بالذعر قلوب الجميـع، ولـم يستطع أحد الوقوف في وجهه؛ لأن أي عصيان كان عقابـه القتل بأبشع طريقة.

ولكن ست الملك لم تكن ضمن زمرة عبـاده، لـذلك غضب عليها الخليفة، واعتقد أنها بذلك تتعمد إحراجه، فرأى أن يلقنها درسا، فبعث إليها برسالة يقول فيهـا: رفـع إلـي

أصحاب الأخبار، أنك تدخلين الرجال إليك، وتمكنـيهم مـن نفسك".

إلى آخر الرسالة.

وهكذا حوت هذه الرسالة التهمة الشـنيعة بارتكـاب الفاحشة، وقد كانت عقوبة هذه الجريمة هي الموت على أبشع صورة، فماذا تفعل ست الملك؟ إن الأخ المختل يضيق عليها الخناق، ويقودها للعار والموت ظلما وقهرا، أما هـي فقـد احتملت كل صنوف العذاب، على أمل أن يفيق من هذيانـه، ويرجع إلى الصواب، ولكن يبدو أن هذا الأمل صار محض سراب، وأن هذا المجنون قد تجاوز الحد الذي يمكن السكوت عليه والتغاضي عنه.

وقررت ست الملك شيئًا رهيبا!!

بعثت برسالة سرية إلى سيف الدولة بن دواس تقول فيها: "لي إليك أمر، لابد فيه من الاجتماع فيه معـك، فإمـا تنكرت وجئتني ليلا أو فعلت أنا ذلك". فـرد عليهـا سـيف الدولة، أنا عبدك والأمر لك.

وما إن حل الليل حتى خرجت ست الملك من دارها متنكرة، متخفية من أعين الرقباء والجواسيس، حتى وصـلت

إلى دار سيف الدولة، وهناك في جلسة سرية ثنائية عرضت عليه ما جاءت من أجله، ووضعت مع الخطة التـي فكـرت فيها للتخلص من الحاكم بأمر الله بقتلـه، وإنقـاذ الإسـلام والمسلمين من شروره، وبعد أن استوثقت منه ومنحت لـه، عادت إلى قصرها سرا كما خرجت منه.

وفي اليوم التالي استدعى سيف الدولة عبدين من أشد عبيده وأقواهم بأسا وجلـدا وبعثهمـا إلـى سـت الملـك، فاستمالتهما وأعطت لها ألف دينار، غير الثياب والإقطاعيات والخيل، ثم أطلقتهما في أثر الحاكم ليأتوا برأسه. فلمـا قتـل فعلا، قامت من فورها ودفنته في مجلسه، وكتمت أمره، ثـم منحت بن دواس والعبدين مكافأة كبيرة، وقد قُتل الحاكم بأمر الله ليلا يوم الاثنين في السابع والعشرين من شوال عام ٤١١ هجري.

وبعد أن نجحت ست الملك في التخلص من أخيهـا، أرسلت إلى ولي العهد تطالبه بالحضور على الفور، وكـان في ذلك الوقت في دمشق، ثم أرسلت إلى أحد قادة الجـيش، هو علي بن داود، تأمره أن يقضي على ولي العهـد فـور

وصوله، وقد وقعت هذه المراسلات باسم أخيها الخليفة، الذي لم يكن خبر موته قد أذيع بعد.

فلما اطمأنت ست الملك، وتأكدت من التخلص من ولي العهد، راحت توزع الهبات والأموال على الكبراء وذوي السلطة والمكانة، كي تضمن منهم الولاء والإخلاص، وتتأكد من طاعتهم لما عزمت عليه من تنصيب ابن أخيها مكان أبيه، واستخلافه في الحكم وإدارة المملكة، فلما تأكدت من مناصرة الجميع وموافقتهم للبيعة لأبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله، وضعت على رأسه تاج المعز لدين الله الفاطمي - جد أبيه - وهو تاج عظيم مرصع بالجواهر الثمينة والأحجار الكريمة، وحين وصل الموكب باب القصر استقبلته أصوات التهليل والفرحة، وبايعه الناس خليفة المسلمين، وكان وقتها صبيا لم يزل صغيرا، ولُقّب بالملك الظاهر.

لكن ست الملك التي لم تكن تدع شيئًا للظروف.

شرعت بعد أن اطمأنت إلى سيادة سلطانها على البلاد، واستحكام الأمور بين يديها، إلى التخلص من كل من تآمر معها على قتل أخيها الخليفة.

فتخلصت أولا من أبي دواس، وعبديه، بأن أرشـدت عليهم فحوكم وقتل هو ومن معه، ثم سعت بعد ذلك فقضـت على الوزير "خطير الملك" الذي عاونها على كتمان السـر، ورفع الخليفة الظاهر على العرش، وبعد هذه الأحداث ظلت ست الملك تحكم مصر، نيابة عن الظاهر حتى ماتـت عـام ٤٢٥ هجري.

قصر الندى

- <u>امرأة من نوع خاص</u>

لم يغفر المصريون أبدا لقطر الندى أنها كانت السبب في افتقار الدولة!!

هي بنت خمارويه بن طولون ملك مصر، كانت آية في الحسن، باهرة الجمال، تدير الرءوس وتخطف الأبصار، وقد شغف بها كل من رآها لفتنتها النادرة وجمالها الطـاغي، أما والدها ملك مصر، فقد كان من أكثر الناس شـغفًا بهـا، أحبها الملك ابن طولون حبا طاغيا، كانت ابنته هي الأثيـرة لديه، المدللة، المتربعة على عرش قلبه، فلم يكن يدخر وسعا لإسعادها وتلبية احتياجاتها، فقد كانت قطر الندى هـي قـرة عين الملك وبهجة حياته، وكانت هي الوحيدة القادرة علـى امتصاص غضبه وقمع ثورته، وتحويله إلى منتهـى الدعـة والهدوء، كانت تلتف حوله تثير الأفراح والضحكات فينسـى هموم الملك والرعية، وتتجاوب روحه مع أصداء ضـحكاتها العذبة النقية، وقتها كان يقسم بينه وبين نفسه أن يجعل قطـر الندى أسعد إنسانة في الوجود.

وكانت قطر الندى من نوع خاص.

هذا النوع الذي يتمتع بجاذبية لا تقاوم.

تستميلك بقوة، فترى نفسك واقعا في أسـر مشـاعر عميقة خلابة، مقيدا بأغلال ليس منها فكاك.

كانت من النوع الذي يجعلك ـ رغما عنك ـ تحبـه في الحال.

ولقد تضافرت كل العوامل كي تصنع منها بأعجوبة، حتى الناس الذين كان من المفترض أن ينقموا عليها من أجل كل الأضرار المالية، التي لحقت بسببها، فإنهم لم يفعلوا، بل على العكس، ازدادوا تعلقًا بها، فقد ظلت تثير فيهم كـوامن الخيال والإبداع كبؤرة إشعاع فكري خلاق، فقد كانت حياتها أشبه بأسطورة، خطبها المعتضد بالله من أبيها بن طولـون، إثر معاهدة الصلح التي تمت بينهما بعد سجال طويـل مـن المعارك والفتن، فقد كانت وجهة نظرهما أن يؤكـدا عـزم صدقهما، ويتوجا صلحهما بالمصاهرة، ومن ثم انعقدت النية أن يتزوج المكتفي بالله ابن المعتضد بالله وولي العهد قطـر الندى، لكن الأب سـرعان مـا بـدل الأوضـاع، وأراد أن يستخاص قطر الندى لنفسه، فقد سمع عنها ما أطـار عقلـه

وأذهب النوم من عينيه، كانت نعومتها وعـذوبتها وحسـنها الباهر وعقلها الراجح، وما تمتاز به من خصال نادرة رائعة، ينتظم في سيرة عطرة تشجي القلوب، وتأخذ بالألباب، فرأى المعتضد بالله أن مزاياها لا مثيـل لهـا، فقـرر ألا يفـوت الفرصة وقال: أنا أتزوجها!

وبالفعل بعث إليها الهدايا والنفائس وطلبها من أبيها، ثم أمهرها بألف ألف درهم.

أما جهازها، فقد كان أسطورة ومأسـاة فـي نفـس الوقت: لم يدخر أبوها مليما في سبيل تجهيزها، فقـد كانـت الجواهر التي حملتها معها من الكثرة، بحيث قيل إنه لم يكن بحوزة أي خليفة شيء مثلها، وإنها كانت السبب في إثـراء المعتضد، أما الملابس: فقد كان نسيجها موشى بسلوك الذهب المطعم باللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة، وقد قيـل إنـه كان في جهازها عشرون صينية من الذهب الخالص، عليهـا أصناف من التحف والمقتنيات الثمينة، أما باقي الجهاز فقد تم اختياره بعناية من كل شيء نادر، غالي الثمن، حتى قيل إن جهاز قطر الندى قد حوى ما لم ير أحد مثله ولا حتى سـمع به، وقد كانت الركائب التي وضعت عليها الأحمال "جهـاز

العروسة" من الكثرة بحيث تبدو كما لو أنها قافلـة تجاريـة مهيبة، تدهش كل من يراها بفخامتها الملكية وثرائها.

ولكن أباها لم يكتف بكل هذا!

كان الطريق الذي سوف تقطعه قطر الندى من مصر حتى تصل إلى بغداد - مقر الخليفة زوجها المعتضد بالله - طريقا طويلا وشاقًا، فكان قلبه يتوجع كلما فكّـر فـي هـذه المسافة التي سوف يتحتم عليها أن تسيرها، بكل ما فيها من إرهاق وتعب، لذا أمر الملك خمارويه بن طولـون بتشـييد القصور الملكية على طول الطريق حتى حدود مصـر كـي يضمن لابنته المحببة مكانًا يليق بها، لتستطيع أن تستريح فيه أثناء السفر، فكانت كلما أرهقها السير دخلت إلى قصر مـن هذه القصور، تستجم فيه بضعة أيام، ثم تعاود الرحيل متابعة سيرها.

ولم يكن هذا كل شيء، فإن عمة قطر النـدى التـي كانت لا تقوى على فراقها من فرط حبها لها، أصرت هـي الأخرى على أن تشيد قصرا عاجلا على أطراف مصر، كي تمكث فيه أياما مع ابنة أخيها كي تودعها منه.

كانت كل هذه القصور مجهزة تجهيزا تاما، بكل مـا يتناسب مع مكانة الأميرة الشابة، ويتوافق مع ذوقها، فقد كان الهدف من ذلك ألا تشعر أنها قد فارقت قصر أبيها، فيتعكـر مزاجها.

ولكن، مع كل هذا، فإن احتفالات العرس كانت هـي التي فاقت الحد فعلا، حيث تمت وسط مظاهر تـرف غيـر مسبوقة، واستمرت المباهج أياما وليال، بعثرت فيها النقـود بغير حساب، وابتدع المتخصصون أنواعـا وأشـكالا مـن الزينات لا تخطر في بال، وفاض البذخ على كـل صـنوف البهرجة حتى احتار الناس.

ولم يستطع والدها أن يترك قطر الندى تسافر وحدها مع رسل الخليفة، فبعث معها أخاها خزرج بـن أحمـد بـن طولون كي يرعاها أثناء الرحلة، فكـانوا يتعـاملون معهـا وكأنها طفلة في المهد لم تزل، يخافون عليها مـن النسـيم، يوفرون لها كل راحة ممكنة. وهكذا كان الزفاف وبالا على المصريين؛ لأن هذا الوالي الذي أصر على أن يحيط ابنتـه بكل مظاهر الثراء، أفرغ خزائن الدولة من أجل هذا الهدف. وسحب نقود بيت المال كلها، فأصبحت خاويـة، لدرجـة أن

المصريين أخذوا يتندرون على هذا ويقولون: إن المعتضـد أراد إفقار الدولة الطولونية فتزوج ابنة خمارويه لهذا السبب!

تركت قطر الندى مصر، ووصلت حتـى مشـارف بغداد، فلما علم الخليفة المعتضد بقدومها أصدر أمرا بمنـع التجوال في ذلك اليوم، فحظر على الناس أن يخرجـوا فـي الطرقات باتجاه سير ركب قطر الندى، ثم أمر أن يصـطف الخدم على جانبي الطريق، وهم يحملون الشـموع، وكـان الطريق المؤدي إلى قصرها قد تم تزيينه وفرشه قبل أيـام، وكذلك فإن شذى البخور الذي أعد خصيصا لها، كان يداعب أنفاسها، ويلف عبيره حولها كلما اقتربت من باب القصر.

ولقد أحبها الخليفة، مثلما أحبها كل الـذين تعـاملوا معها.

ويذكر أنه في يوم من الأيام، وكانا يجلسان معا، أن المعتضد بالله وضع رأسه على ركبة قطر الندى فأخذه النوم، رغم أنه من غير المألوف أن يفعل ذلك، فقد كان يخاف على نفسه ولا يعطي الأمان بيسر، فقد كانت حياته مستهدفة طوال الوقت، فلما نام على ركبتها، راحت تزيح رأسه برفق ورقة، حتى وضعتها فوق وسادة دون أن يشعر بها، ثم انسحبت من

مكانها وجلست بالقرب منه في مكان آخر، فانتبه المعتضـد ولما لم يجدها بجانبه فزع ونادى عليها، فأظهرت له نفسها، حينئذ عاتبها قائلا: أسلمت نفسي لك فتركتني وحيدا، وأنا في النوم لا أدري ما يفعل بي. فقالت: ما جهلت قدر ما أنعمـت به علي، ولكن فيما أدبني به والدي خمارويه أني لا أجلـس مع النيام ولا أنام مع الجلوس.

وقد ظلت قطر الندى تنعم بحب زوجها وتقديره حتى ماتت سنة ١٨٧ هجري.

ورغم أن الإفلاس قد حل بمصر مـن جـراء زواج قطر الندى، والمبالغ الباهظة التي تم إنفاقها علـى الجهـاز والاحتفالات والقصور، ورغم أن المصريين لم يغفروا لهـا ذلك أبدا، إلا أنهم أيضا لم ينقموا عليها تماما!

فقد ظلت قطر الندى مثيرة لخيالهم، وظل هذا الترف الأسطوري مصدرا للإلهام، ومن هـذا التكـوين الخـلاب ظهرت حكايات تستلهم من شخصية قطر النـدى فصـولها، وتمزج الواقع بالخيال، وظل الإبهار رغم كل شيء هو الدافع وراء الإبداع.

الملكة عصمة الدين

- شجرة الدر

هي أول ملكة عربية تحكم في الدولة الإسلامية.

وكان هذا شيئًا غير مألوف.

بدأت حياتها كجارية، وكانت تتمتع فضلا عن جمالها وجاذبيتها بفراسة ودهاء وعزيمة من حديد، أحبها نجم الدين الملك السابع في حكم الأيوبيين.

فلما ولدت له ابنه خليل، تزوجها ورفعها بجانبه على العرش، وقد كان الملك الصالح متيما بهـا، يحوطهـا بكـل الاحترام والتبجيل، أما هي فقد كانت تعرف كيف تؤثر عليه، وأظهرت شجرة الدر قدرة خارقة، وموهبة غير عادية فـي إدارة الأمور، فأدهشت الملك الصالح بحصافة رأيها وفضـل مشورتها، فارتفع قدرها لديه وعظمت مكانتها، فأطلق يـدها في الحكم، مما زاد من نفوذها فقويت شوكتها وسلطانها.

وكانت شجرة الدر في كل هذا نعم الزوجة المخلصة المشاركة لزوجها في كل الأزمات والمواقف.

وكانت مصر، منذ أن تولى الملك الصالح حكم البلاد خلفًا لوالده الملك الكامل تغلي بنار الفتن والثـورات، فلمـا كادت الأوضاع تستقر، حتى فوجئ الملك الصـالح بهجـوم الصليبيين عليه، حيث حاصر الأسطول الفرنسي دمياط.

فلما وصل الخبر إلى الملك أخذ يجمع القواد، ويعـد الجيش لمواجهة خطر الصليبيين، وتوجه الجيش بقيادة الأمير فخر الدين إلى دمياط، حيث بدأت الحرب التـي انتهـت ـ للأسف ـ بانتصار الصليبيين، واسـتيلائهم علـى دميـاط، وتقهقر جيش المسلمين إلى المنصورة، عندئذ أسرع الملـك الصالح إلى المنصورة، لتحصينها وإعـادة رسـم خططـه العسكرية، وتنظيم صفوف الجيش مرة أخرى، وبعد أن أتـم ذلك، أخذ يحرز فوزا تلو الآخر في بعض المعارك، مما رفع الروح المعنوية للجيش والشعب، فبـدأ الاسـتعداد لمعركـة حاسمة تعلم الصليبيين ألا يفكروا مرة أخرى في غزو البلاد.

ولكن فجأة سقط الملك الصالح.

خر صريعا تحت وطأة المرض الفتاك، وكان لم يتعد الأربعين من عمره.

وبالطبع، لم يفكر أحد في أن يذيع الخبر، خوفًا من اضطراب الجيش، أو ما قد ينتج من فوضى وتشتت، فلما مات في عز المعمعة وقلب المعركة تم نقل الجثة سرا في تابوت من المنصورة إلى قصر المنيل، حيث تقطن شجرة الدر، ودفن في قلعة الروضة، ولم يعلم بنبأ الوفاة سوى بعض الأفراد المقربين جدا والمضمون ولاؤهم، بعد ذلك أرسلت شجرة الدر إلى قائد الجيوش فخر الدين، وإلى رئيس الأغوات، تطلب منهما الحضور على الفور لمقابلتها لأمر عاجل، فلما حضرا أخبرتهما بالنبأ، وأوضحت لهما الأسباب التي حدت بها إلى كتمان الأمر، فأقرا حسن تصرفها.

ثم قرر الثلاثة في تلك الجلسة اختيار واحد من أخلاص أمراء الجيش، وإرساله إلى الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح وولي عهد السلطنة، ليحضر على الفور، ووقع الاختيار على أقتاي ليقوم بهذه المهمة.

وبعد ذلك بعثت شجرة الدر بالمكاتب إلى قادة الجيش والأمراء بالأوامر الملكية: بإطاعة الملك الصالح في إقامة العهد للملك المعظم توران شاه ابنه، وأن يقرن اسم ولي العهد باسم الملك الصالح في خطب الجمعة وعلى المنابر.

وعندما حضر توران شاه، كانت شجرة الدر قد نجحت في السيطرة على تماسك البلاد وتهيئة الناس للخبر الأليم، فأعلن توران شاه وفاة الملك وتوليه الأمر من بعده، أما شجرة الدر فانزوت تقيم المآتم حدادا على زوجها، تاركة مقاليد الحكم في يد ابنه.

وكان أول شيء فعله توران شاه: تنفيذ رغبة والده في خوض المعركة الفاصلة، فأخذ يهاجم الصليبيين، ثم وضع خطة لحصارهم والتضييق عليهم، كما قام بالاشتباك مع أسطولهم البحري، وأغرق حوالي خمسين من سفنهم، وفي النهاية انتصرت جيوش مصر على الصليبيين، الذين فروا مهرولين مذعورين، بينما أُسر ملك فرنسا لويس التاسع، هو ورجاله وحاشيته وخمسمائة من جنوده، واقتاده العسكر إلى المنصورة، حيث وضعوه أسيرا في دار القاضي فخر الدين.

قرر توران شاه بعدما أحرزه من نصر، وما استقام له من ملك أن يقيم في فارسكور، وأن يجعل فيها معسكره، حيث شيد هناك قصرا فخما من الخشب على ضفة النيل، وبنى بجانبه برجا عاليا.

وقد جعل توران شاه هذا القصر الذي بنـاه وكـرا خاصا لملذاته الشخصية، تلك الملذات التي انغمس فيها ناسيا أمر الصليبيين وأمر الدولة. أرسل توران شاه إلـى شـجرة الدر يطلب منها رد أموال أبيه وممتلكاته وتسليمها له، فلمـا أجابت أنها أنفقت كل هذا في الجهاد المقدس، ولم يبق لـديها شيء، غضب توران شاه غضبا شديدا، وهـددها باسـتعمال العنف وأخذ ماله بالقوة.

ومنذ ذلك الحين أصبح توران شاه مصدرا للمشاكل، وعبئًا على الحكم!

كان يستقبل يومه والكأس في يده، فيمضيه في السكر والعربدة، جامعا حوله النساء الفاتنات، منغمسا في الشهوات لاهيا بالملذات، يتناول شئون الحكم مخمورا ثملا، فيصـدر الأحكام الجامحة والأوامر التعسفية، بل لقد صب نقمته على المماليك وراح يضطهدهم دون سبب وجيه.

وفي النهاية نجح توران شاه في أن يجعل من نفسـه شخصية بغيضة ممقوتة.

فقط بعد أربعين يوما من توليه السلطة!

أما الرعية فقد كان رأيهم أن توران شاه حاكم ظالم وملك مستبد.

ومن بعيد، كانت شجرة الدر رقيبة على الأحداث، فلم يعجبها الوضع، ورأت أن توران شاه ليس جديرا بالعرش.

لذا استدعت المماليك لاجتماع طارئ، حيث تآمرت معهم على قتل توران شاه لإنقاذ البلاد من استبداده ومجونه!

وفي ٧ محرم عام ٦٤٨ هجري، فوجئ توران شاه بأحد المماليك يقتحم قصره وسيفه مشهرا، وقبل أن يستوعب الملك الموقف، كان الجندي قد سدد نحوه السيف ليقتله، إلا أن توران شاه تفادى الضربة في اللحظة الأخيرة، فجاءت على يده وقطعت أصابعه، فاشتد جزعه وتملكه الرعب، ففر من وجه قاتله مضرجا بالدماء، وأسرع يعتلي البرج محتميا فيه، فلما رآه المماليك حاصروا البرج وطالبوه بتسليم نفسه إليهم.

لكن الملك صاح مستعطفًا يطلب منهم الأمان والرحمة، فلم يستجب أحد لندائه، وأشعل المماليك النار في البرج، فلما وجد توران شاه النار محيطة به تكاد تقضي

عليه، رمى بنفسه في النيل، وأخذ يسبح بكل قـوة، محـاولا النجاة، لكن الجموع كانت خلفه بالمرصاد، فنالتـه السـهام، ولحقه المطاردون ومات توران شاه الملـك المعظـم آخـر الحكام الأيوبيين هذه الميتة مذبوحا ومحروقًا وغريقًا تلاحقه لعنة الناس عليه.

وبعد موت الملك المعظم، انتخب الأمـراء والقـواد شجرة الدر ملكة للبلاد بإجماع الآراء، ولقبت بـ ـ"الملكـة عصمة الدين"، في نفس الوقت الذي كان فيه الأمير حسـام الدين قد انتهي من مفاوضات الصلح مع الصليبيين، والتـي كانت تنص على أن تدفع فرنسا غرامة حربية لمصر قدرها أربعمائة ألف دينار، مقابل الإفراج عن الملك وجنوده.

ووسط هذه الفرحة المزدوجة تقلدت شجرة الدر حكم البلاد وهي في الأربعين من عمرها.

وقبل الأمراء الأرض لها من وراء الحجاب.

وأصبحت بذلك تاسع من تولى السلطنة بمصر مـن الأسرة الأيوبية.

وكان حكمها هو الحد الفاصل بين نهايـة الأيـوبيين وبداية حكم المماليك.

تركت الملكة قصر المنيل، وانتقلـت إلـى القلعـة المشهورة التي بناها الناصر صلاح الدين الأيـوبي، والتـي كانت مقرا لحكم الملوك السابقين، لما تمتاز به مـن موقـع حصين وتجهيزات أمنية عالية، ومن هناك بدأت تحكم مصر.

كان أول شيء فعلته شجرة الدر بعد جلوسها علـى العرش هو:

إصدار المراسيم والمكاتبات، إلى كل العاملين علـى الأمصار بتخفيض الضرائب، ورفع المعانـاة عـن كاهـل الشعب، ثم أخذت تفرق الوظائف علـى الأمـراء، وتهـب المماليك الإقطاعيات، كما أغدقت على خلصـائها الأمـوال والخيول، ثم جعلت عز الدين أيبك الصالحي أتابك عسكرها، وهي وظيفة تعني رئيس الوزراء حاليا، ورغم أن أيبك كان معروفًا بقوته وصلابته وذكائه وحسن إدارته لشئون الرعية، ورغم أنه كان محبوبا من عامة الشـعب ومصـدر ثقـتهم، إلا أن أهم مزاياه، التي أهلته لهذا المنصب المرموق، كانـت الولاء التام للملكة وتواضعه بين يديها، وفعلا فإن عز الدين أيبك لم يكن يقطع برأي ولا يأمر بـأمر إلا بعـد استشـارة الملكة وأخذ رأيها في كل صغيرة وكبيرة.

وكانت شجرة الدر تصدر المراسيم، وعليها توقيعها باسمها وخطها.

وكانت الخطب تذكر اسمها على منابر مصر والشام، داعين لها بعد الخليفة، فقد كانت الخطباء تقول:"واحفظ اللهم الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجـاب الجميل والستر الجليل".

ولكن الخليفة المستنصر لما بلغـه أن أهـل مصـر سلطنوا عليهم امرأة استنكر هذا الوضع، ورفض الاعتـراف بشجرة الدر، وأرسل إلى الأمراء رسالة لاذعة قـال فيهـا: "أعلمونا، إن كان ما بقي في مصر من الرجال مـن يصـلح للسلطنة، فنحن نرسل لكم من يصلح لها"، ثـم أخـذ يهـدد ويتوعد ويحض الأمراء على خلع شجرة الدر.

فلما وصلت هذه الرسالة عقـدت الملكـة اجتماعـا موسعا مع أركان الدولة، وأخذوا يتشاورون للخروج من هذا المأزق الصعب، حتى وصلوا إلى الحل، واتفقوا بالإجمـاع على أن تتنازل شجرة الدر عن العرش إلى عز الدين أيبـك بشكل رسمي، على أن تعود للحكم شريكة لـه بـأن يعقـد قرانهما بعد توليه السلطة.

وتم تنفيذ هذه القرار، خلعت شجرة الدر نفسها مـن الملك، وأصبح عز الدين أيبك سلطانًا على مصـر، ولُقـب بـ"الملك المعز"، أو"الملك العزيز".

ولكن اختلاف الأدوار لم يؤثر على واقعية الحـال، لأن شجرة الدر ظلت هي الحاكمة الفعلية للبلاد، تنهي وتأمر من وراء الحجاب.

وبعد ذلك، توالت الأحداث بسرعة رهيبة.

فقد وقعت الفتنة المعروفة، وخرج رجل من الأقـاليم الشرقية، هو يوسف مظفر الدين، أحد أبناء الملك المسـعود، وادعى أحقيته لحكم مصر، وجمع حوله الأتباع والمؤيـدين، ثم كون جيشًا قويا ووضع أقطاي قائدا له، وزحف إلى القلعة هادفًا خلع أيبك وتنصيب نفسه بدلا منه، ولكن أيبك الذي كان على علم بنوايا يوسف، استعد له، فلما توجه الجيش لحصار القلعة فوجئ بمقاومة عنيفة، ودار قتال رهيب، استطاع أيبك فيه تشتيت شملهم، وتمزيق صفوفهم، وقتـل مـنهم أعـدادا كثيرة، ثم نال من قائد الجيش أقطاي، فقطع رقبتـه ورمـى برأسه وسط جنوده الذين ما إن رأوا هذا حتى ملأهم الذعر،

وأخذوا يفرون من المعركة، ثم بعد ذلك قبض أيبـك علـى خصمه زعيم الثورة وحبسه.

ولما انتصر الملك العزيز أيبك على خصمه العنيـد، زادت هيبته وعظم سلطانه عند الرعية، كذلك فقد ارتفع قدره وزاد شأنه لدى نفسه هو شخصيا.

وأصبح وضع التابع الأمين المخلص المطيع لمليكته: وضعا لا يليق به، ولا بما وصل إليه من الرفعـة والمجـد، لذلك تمرد الملك العزيز على شجرة الدر!

بل لقد صارت وكأنها تكتم على أنفاسـه بملاحقتـه والاستفسار عن كل شيء.

وضاق ذرعا بجواسيسها الـذين يملئـون القصـر، ويعدون عليه أنفاسه.

وإن كان سلطان الحب هو الذي أوقع به، فجعله عبدا ملك يمين الملكة.

وإذا كانت فتنتها وجاذبيتها وعظمتها الفطريـة هـي التي سحرته من قبل.

فإن نار العشق خمدت مع الأيام.

خاصة وأن شجرة الدر كانت تكبر أيبك سنا، وكانت قد تجاوزت مرحلة ازدهار الشباب عندما تزوجها، وأحسـت شجرة الدر بالتغيرات التي بدأت تطرأ على علاقتها بأيبـك، ورأته يتحرر من سطانها شيئًا فشيئًا، ويخرج تدريجيا مـن دائرة نفوذها.

فقررت أن تواجهه بشكواها، فلمـا فعلـت فوجئـت باحتدام المناقشة بينهما بشكل خطير، حيـث اتهمهـا أيبـك صراحة بأنها امرأة متسلطة، تحركها شهوة الملك ويتملكهـا الغرور، فردت عليه قائلة إنه نسى فضلها، وإنها هي التـي رفعته بجوارها على العرش، وكانت السبب في كل ما وصل إليه، وإنه ليس من رد الجميل أن يهينها إلى هذا الحد.

عندئذ.. ترك أيبك القصر غاضبا.

ومن يومها، لم تنته بينهم المنازعـات والمناقشـات الصاخبة، مما أدى إلى ازدياد النفور، وتوسيع هوة الخلاف.

وأصبح الملك العزيز لا يتواجد في القلعة إلا نادرا، وكان يتهرب عامدا من أي موقف يجمع بينه وبين الملكة.

إلى أن بدأت النهاية!!

علمت الملكة عن طريق جواسيسها أن الملك العزيز خطب لؤلؤة بنت الملك الرحيم بدر الدين صاحب الموصـل، وأنه ينوي إتمام الزواج في أقرب وقت.

عندئذ قررت أنه لابد أن يموت أيبك!

وفورا وضعت خطة القتل:

ذهب أيبك إلى حمام كي يغتسـل، وهنـاك فـوجئ بسنجر الجوهري ومجموعة من الخدم ينقضون عليه فشـلوا حركته وخنقوه حتى أسلم الروح، بعد ذلك طلبت شجرة الدر أن يحضر ابو مرزوق، أحد خلصائها، فلما حضر أطلعتـه على الأمر، وطلبت مشورته فيما تفعل، فلم يشر عليها بشيء وقال: "لا أعرف ما أقول لك، لقد أوقعت نفسك في ورطـة فظيعة ليس لها مخرج"، وانصرف آسفًا على ما حدث.

فكرت شجرة الدر بعد ذلك في الأمير جمال الدين بن إيد غدي باعتباره الأصلح لمشاركتها في العرش، فاستدعته، وعرضت عليه الأمر، فأبى ورفض، فلجأت إلى عز الـدين أيبك الحلبي، فرفض هو أيضا.

في ذلك الوقت كان خبر قتل الملك العزيز قد شـاع بين الناس، وحدث هرج كبير، وثار أهـل الملـك الميـت،

خاصة زوجته الأولى وابنه الوحيد نور الدين، وقد عقدوا العزم على الانتقام من قتلة الملك، ولكن بعض الأمراء أشفقوا على شجرة الدر من بطش أنصار الملك العزيز وأسرته، فحالوا بين الملكة وبين من يريدون النيل منها، أما هي فقد احتمت من قتلة زوجها في دار السلطنة.

ولكن إرادة الانتقام انتصرت في النهاية.

فقد استطاع الأمراء الموالون للملك العزيز "أيبك" أن يصلوا إلى شجرة الدر، وأن يقبضوا عليها، واقتادوها إلى البرج الأحمر وهناك تم حبسها.

ولكن أم نور الدين التي كانت شجرة الدر عدوتها الوحيدة في الحياة؛ لأنها أولا: أرغمت أيبك أن يطلقها، وثانيا: لأنها قتلت أبا ابنها الوحيد وتسببت في يتمه، ولم تكن لترضى أن تترك شجرة الدر لتعيش!

وعن طريق الرشوة تمكنت من الوصول إلى الملكة المسجونة، حيث أمرت جواريها فأنهالوا على رأسها بالقباقيب، وبعد أن ماتت شجرة الدر بهذه الطريقة الوحشية، ألقوا بجثتها شبه عارية لا يسترها سوى سروال رقيق، من برج القلعة إلى خندق حقير.

وفى يوم السبت ١١ ربيع الآخر عام ٦٥٥ هجـري وجدت شجرة الدر مقتولة، ومجردة في هذا الخندق، فحملت إلى المقبرة التي كانت قد بنتها لنفسها بـالقرب مـن مشـهد السيدة نفيسة، في نفس المسجد المعروف باسمها فـي قلـب القاهرة. أما الخدم والأغوات الذين اشتركوا في قتل الملـك أيبك، فقد تم القبض عليهم وصلبوا داخل القلعة.

المراجع

١- موسوعة التاريخ الإسلامي — د. أحمد شلبي

٢- معجم البلدان — ياقوت الحموي

٣- تاريخ الرسل والملوك — ابن جرير الطبري

٤- جمهرة النساء وأعلامهن — مذاع الشمري

٥- أعلام النساء — رضا كحالة

٦- أدباء العرب في الجاهلية والإسلام — بطرس البستاني

٧- المرأة في الشعر الجاهلي — أحمد الحوفي